القيم الأخلاقية

دراسة نقدية

في

الفكر الإسلامي والفكر المعاصر

دكتورة

سامية عبد الرحمن عبد السلام

فهـــرس تحليـــلى للكتـــاب

٢ - الغـزالى : الغزالى والتصوف - الخلق - قابلية الاخلاق للتغير (الرياضة ومجاهدة النفس) - الفضيلة فى مذهبه - معنى الخير فى فلسفة الغزالى - الغـاية من الاخلاق ·

٣ - الصوفية : منهج الصوفية واهتمامهـم بالاخلاق · (التصـوف خلق - طريق الصوفية - الاسـلام - المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ·

الغـزالى والصوفية - ارتباط التصوف بالدين الاسلامى ·

الفصل الـرابع : القيم الاخلاقية فى الفكر الحديث

١ - كانط وقيم الواجب : تمهيد - الارادة الخيرة - قواعد الأمـر المطلق (الواجب) - تعقيب ·

٢ - بنتـام وقيـاس القيم :

الفـردية - المنفعـة أو السعادة - قيـاس القيـم (الحسـاب اللذى) - بنتام فى ميزان النقد ·

٣ - شوبنهور وقيم العاطفة :

مذهبه : (العالم امتثال وارادة - العالم شر) ·

الخلاص عن طريق الفن أولا ، الأخـلاق : الحب والمشـاركة الوجدانية - أخيرا طريق الزهد - تعقيب ·

الفصـل الخامس : القيم الأخلاقية فى الفكر المعـاصر

- تمهيـد ·

١ - جـون ديوى : المذهب الزرائعي وتغيير القيم ·

- العالم قابل للتغير والتحسن : مبدأ الأخلاق عند ديوى ·

- الأخلاق انسـانية (ارتباط الأخلاق بالواقع والانسان ·

- الأخلاق لا تنبع من الذات أو الضمير أو العقل (نقد ديوى لهـذه المذاهب) ٠

- الأخلاق - يمكن ضبطها واخضاعها لمنهج العلم ٠

٢ - نيتشـــة وقلب القيم السـائدة :

بين نيتشـة وشوبنهور - ارادة القوة بدلا من قـوة الارادة - اخـلاق السـادة والعبيد - معنى اللا اخلاقية عند نيتشـة - تعقيب ٠

— خـاتمـــة : القيم الأخلاقية رؤية نقدية ٠

- أهم المراجع العـربية والأجنبية ٠

مقدمة

ان القيم هى التى ترقى بالانسان الى أسمى درجات الانسانية وبدونها يفقد المجتمع الانسانى المبادىء والأصول والقوانين التى تنظم حياته . فما احوجنا ان نتحدث عن القيم الانسانية والحديث عنها اليوم قليل ، وما احوجنا ان نعرض لها لنستعيد شيئا من تاريخها ، فالأذهان عنها معرضة ، ذلك ان الحروب العالمية طغت عليها ، وكادت المادية السائدة ان تودى بها ، واصبحنا نتلمسها احيانا فى بعض المواقف فلا نجدها .

ونتساءل : هل لا تزال القيم تحظى بما لها من قداسة واحترام ؟

ان الانسان اليوم يتساءل اكثر من ذى قبل لعله يجد جوابا يريحه مما يشغل باله ، يتساءل لأنه يتطلع : يرجو ويأمل ، يخشي ويخاف ، فهو فى مفترق الطرق . هذا التساؤل الدائم هو اهم ما يميز الانسان بوصفه كائن اخلاقى .

فالانسان يشارك الحيوان فى الحس فينزع معه الى اشباع حاجاته العضوية ومطالبه الجسمانية ، ولكنه ينفرد عنه بالتامل العقلى الذى يجعله يتجاوز واقعه باستمرار ويتعالى عليه . انه الكائن الوحيد الذى يملك ارادة التغيير عن وعى وتبصر فينزع بارادته الى مجاهدة ميوله وغرائزه وتوجيه مطامحه الى اقصى مطالب الكمال .

فالدعوة الي القيم الأخلاقية قديمة قدم المجتمعات البشرية . وما اجتمعت طائفة من الناس فى أى مكان وزمان الا وقد نجمت عن اقامة افرادها بعضهم مع بعض قواعد للتمييز بين الخير والشر، الحق والباطل ، الكمال والنقص ... الى آخر هذه المعايير .

ومن الضلال ان نظن اننا نستطيع أن ننشىء نهضة أو ننجح فى تنمية وعينا الصحيح ان اخطانا التوفيق فى تطعيم عقولنا بالفكر الانسانى والقيم الروحية والمثل العليا فى نفوسنا . فالقيم الاخلاقية تحتل على الدوام مكان الصدارة فى حياة الشعوب .

ان ما كتب عن موضوع القيم فى اللغات الاخرى واسع للغاية ، ومن العسير علينا ان نعالج كل موضوعاته أو نتناول كل ابحاثه ، لذلك راينا ان يقتصر بحثنا على احد فروع هذا البحث وهو القيم الاخلاقية نظرا لانها تحتل مكان الصدارة فى توجيه حياتنا وسلوكنا العملى من ناحية ، ولارتباطها الوثيق بالقيم الاخرى : الدينية والعلمية والجمالية — من ناحية أخرى .

والكتاب يشتمل على خمس فصول وخاتمة نقدية .

افتتحنا الكتاب بفهرس تحليلى لمحتوياته ثم عرض لفصوله :

الفصل الأول : مدخل الى عالم القيم نعرض فيه لمحة سريعة عن القيمة عامة ومدى ارتباط الانسان بالقيم وحاجته إليها ، معنى القيمة وطبيعتها ، القيمة بين الوجود والانكار ، اخيرا شمول القيمة .

اما الفصل الثانى : القيم الاخلاقية فى الفكر الاسلامى .

١ — نعرض فيه لدعائم القيمة وخصائصها فى الاسلام وشروطها وغايتها .

ويعرض الفصل لارتباط القيم الاخلاقية بالحضارة ، وموقف الاسلام من القيمة الاخلاقية .

الفصل الثالث : القيم الاخلاقية عند بعض مفكرى الاسلام .

ابن مسكويه ، الغزالي ، الصوفية .

نظرة كل منهم الى القيمة الخلقية ، ومعنى الخير والشر فى فلسفاتهم وغاية القيمة عندهم .

الفصل الرابع : القيم الأخلاقيه فى الفكر الحديث :

ويضم الفصل أبرز الاتجاهات القيمية فى العصر الحديث :
(كانط ، بنتـام - شوبنهور) ٠

الفصـل الخامس : القيم الأخلاقية فى الفكر المعاصر ٠
ويشتمل على المذهب الزرائعى عند ديوى ، نيتشـه وقلب القيم ٠

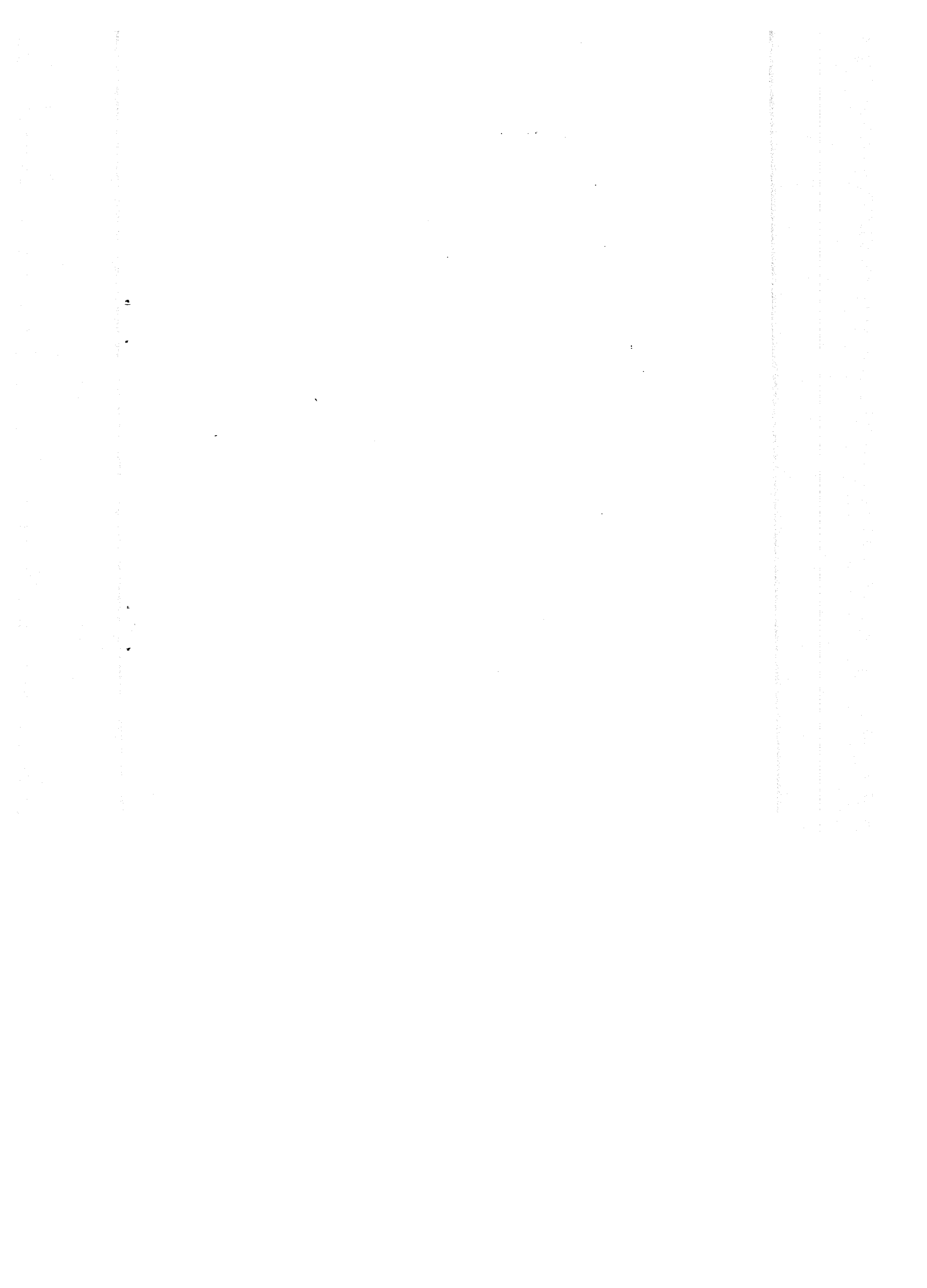
خـاتمـة : القيم الأخلاقية ٠ رؤية نقدية ٠

وتتضمن موقف خاص من القيم الأخلاقية ومعنى القيمـة الأخلاقية وحـدودها ٠

ونرجـو فى ختـام هـذه المقدمة ان يسـد كتابنا فراغا فى مكتبتنا العـربية ٠

وانا لنعتذر عما يمكن أن يكون في عملنا من سقطات ٠
ونحمـد الله على ما فيـه من حسنات ٠
والله الموفـق نسـأله التوفيـق والسـداد ٠

سـاميه عبد الرحمـن



الفصل الأول

مدخـل الى عـالم القـيم

الانســـان والقــيم :

تعد ازمة القيم من السمات الواضحة لهذا العصـر نتيجة لطغيـان المـادة على كل ما حولها من قيم ومبادىء ٠

فالتقدم الباهر الذي وصـل اليـه الانسـان لم يحقـق له التوازن النفسى الذى يبغيه ، بل اهتزت القيم بداخله وتضـاءلت ، واصبح كل ما يهمه هو المـادة ، واصبح لا يرى الا ذاته ولا يسمع الا صوته ونتيجة لهـذا افتقدت القيـم الروحيـة التى تحـافظ على الترابط الاجتماعى واصبحت القيم تهم الفـرد اكثر من المجموع ، كما اصبحت النفعية هى التى تحدد القيم ٠٠

وقد تبين للمفكرين والفلاسـفة أن الحضـارة الأوربية قـد جعلت القوة المـادية تطغى على القيم الانســانية والروحية ، ولهـذا كانت الدعـوة الى القيم الأخلاقية ٠ ولعل القيم الانسـانية عامة والأخـلاقية خاصة هى الشعاع او الأمل الذى يحقق للانسـان رغبة فى بلوغ التكامل والوحدة ، والسـلام مع النفس والعـالم ٠

ويرى د٠ زكى نجيب محمود فى كتابه : « فلسفة وفن » ٠٠٠٠ « أن القيم تقـوم فى نفس الانسـان بالدور الذى يقوم به ربان السفينة، يجريها ويرسيها عن قصد مرسوم والى هدف معلوم ٠ ففهـم الانســان على حقيقته هو فهم القيم التى تمسك بزمامه وتوجهه ٠

ويؤكد د٠ زكـريا ابراهيم هذا الرأى في كتابه « المشكلة الخلقية » فيقول : « الواقع انه اذا كان ثمـة شىء قد أصبح الانسـان المعـاصر

مفتقـرا اليـه ، فما ذلك الشىء سوى الوعى الأخـلاقى الذى يمكن أن يوقظ احساسه بالقيم • وحسبنا أن نمعن النظـر الى حياة الانسـان الحديث كى نتحقق من انهـا حياة سطحية خـاوية ، يعـوزها عمـق الاستبصار وينقصها كل احسـاس بالقيمة •

والحق انه لا سبيل الى عـلاج هذا الا باستثارة ما لـدى الانسـان من قدرة على الدهشـة والتعجب ، ودعوته الى القيم والاحسـاس بعمق الحيـاة وثرائهـا ، وهـذه هى مهمة فيلسـوف الأخـلاق فيما يرى هارتمـان (١) •

والحـق أن الانسـان هـو الكائن الأخـلاقى الوحيد الذى يحمـل امانة القيم ، ذلك انه حامل لمبدأ أسمى أو هو المبـدع الحقيقى لذلك الواقع الحـافل بالقيم ، ومن هنـا فشخصية الانسـان ليست شـخصية وجودية فحسب بل هى شخصية تقييمية Valu ational ولم يخطىء كانط حينما وضع السماء المرصعة بالنجوم فى كفـة ، والقانون الاخلاقى فى الكفة الأخرى • فما كان ذلك الا بقصد اقامة ضرب من التوازن بين هذين العنصـرين اللذين يستثيران فى النفس الشعور بالاعجـاب والروعة ، وان كان كنط احـرص على ابراز اعجابه بذلك الوعي الأخـلاقى الذى يرقى بالانسان الى مستوى فائق للطبيعة (٢) •

ماهيـة القـيم :

معنى القيمـة : معنى قيمة الشىء : قدرة وقيمة المتاع ثمنه كما ورد فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية(٣) •

والقيمة Value أو Valeur هى من حق وخير وجمال تكون :

(أ) صـفة عينية فى طبيعة الأقـوال (فى المعرفة) ، والأفعـال

---

(1) N. Hartman : Ethics. Vol. 1., P. 64, 64.
(2) Ibid : P. 243-244 / 266 - 270.
(٣) باب القاف : ص ٧٧٤ •

(فى الأخلاق والأشياء (فى الفنون) . وما دامت كامنة فى طبيعتها فهى ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات ، وبهذا قال المثاليون العقليون ، وهى بهذا المعنى تطلب لذاتها .

(ب) صفها يخلعها العقل على الأقوال والأفعال والأشياء طبقا للظروف وبالتالى تختلف باختلاف من يصدر الحكم ، وبهذا قال الطبيعيون من الحسيين والوضعيين والبراجماتيين ومن اليهم .

والقيمة بهذا المعنى تعنى الاهتمام بشىء أو استحسانه أو الميل اليه والرغبة فيه ، ونحو هذا مما يوحى بان القيمة ذات طابع شخصي ذات خلو من الموضوعية ؛ وتكون وسيلة الى تحقيق غاية(٤) .

وتدل كلمة قيمة حسب الأصل اللاتينى لها على القوة والصحة والشجاعة ، ومن هنا كان الاقدام والشجاعة على رأس الفضائل الأخلاقية .

ويستخدم علماء الرياضة كلمة القيمة للدلالة على الكم لا الكيف .

أما القيمة الفنية فهى تجمع بين الكيف والكم فهى تعبر عن العلاقات الكمية التى بينهما ، والقيمة الفنية تقع فى حدود الزمان والمكان اما القيم الميتافيزيقية فهي تتجاوز هذه الحدود .

وينكر الفلاسفة القيمة المنطقية باعتبارها معيار الصدق فى الأحكام المنطقية .

ويستخدم الاقتصاديون لفظ القيمة للدلالة على الثروة وهى تعنى عندهم قيم الانتاج والاستهلاك .

أما الناحية المعنوية فهى أساس علوم ترتبط بمفاهيم الخير او

---

(٤) د . مراد وهبه ، يوسف كرم : المعجم الفلسفى ص ١٥١ .

الحق أو الجمال ، وهذا المعنى المعنوى قد عرفته الانسانية منذ اقدم العصور(٥) ٠

ونحن نتساءل : هل يمكن ان تكون قيم الأشياء قيم مادية خالصة ، وقيم الأشخاص قيم روحية ومعنوية ؟

فى الواقع ان القيم الاقتصادية تنزع نحو القيم الأخلاقية مثل المساواة والعدالة ٠ فلا يكفى مثلا تحديد اثمان الاشياء واسعارها ، انما يجب ان يكون السعر عادلا ٠ أما اذا نظرنا الى الأشخاص فاننا لا نستطيع ان نحولها الىاشياء أو اجساد فردية ، والحياة الانسانية لا يمكن ردها الى طبيعة مادية خالصة ٠ فالانسان لا يتميز بالفكر والعقل والروح والشعور والحرية ، وهذه كلها تجعله قادرا على ان يتحكم فى المادة التى لا يمكن أن تكون هى الغاية النهائية لحياته ٠

هذه هى بعض المعانى المختلفة لكل قيمة ، ويمكن القول بأن هذه المعانى سواء أكانت مادية اقتصادية أو روحية معنوية - تندرج فى النهاية تحت معنى واحد وهى انها قيم انسانية أى من وضع الانسان الذى يحافظ بواسطتها على حياة الجسد ٠ فالانسان هو صانع القيم ولا يمكن أن يتحدد وجوده الا من خلال علاقته بها ٠

ميلاد نظرية القيمة :

القيمة مبحثا اساسيا من مباحث الفلسفة يعرف بمبحث القيم Axiology ، ويرجع اكتشاف اهميتها الى القرن التاسع عشر ، ولعل اكتشافها هو اعظم ما حققه ذلك القرن ، وقد تحققت فى هذا الوقت على يد الفيلسوف الألمانى نيتشه والبراجماتية حسب ما أجمع عليه اغلب مؤرخى الفلسفة ٠

---

(٥) د ٠ نازلى اسماعيل : فلسفة القيم ص ١٤ ٠

ونحن نتساءل : هل كان للقيم وجود قبل ذلك الوقت ام كانت فى دائرة الافكار ؟

نجيب على هذا فنقول : « القيم قديمة قدم الانسان نفسه ، ولكنه لم يجعل لها مكان الصدارة فى اقواله او تفكيره رغم ما لها من اهمية فى حياته .

فنحن لا نعثر فى الفلسفات القديمة من تجعل من القيم مشكلتها المحورية .

فاذا رجعنا الى فلسفات الاغريق – مثلا – وجدنا هذه القيم موجودة ضمنا فى فلسفاتهم . فعند بروتاجوراس : الانسان مقياس كل شىء ، والقيم الأخلاقية قيم نسبية اما سقراط فقد اهتم بالفلسفة عامة ، والأخلاق خاصة ، واصبحت القيم الأخلاقية عنده عامة وثابتة ومطلقة وذلك وفقا لمذهبه الأخلاقى القائم على العقل .

ثم تجد القيمة فى فلسفة افلاطون فى حديثه عن الخير الاقصى تتويجا لعالم المثل وارسطو عندما حاول تنسيق الكائنات على اساس غائى ، وايضا نظريته فى السعادة كغاية اعلى يحققها الانسان .

فى كل هذه الفلسفات نجد للقيمة مكانا واضحا فيها ، ولكنها – رغم ذلك – لم تكن تحتل مكان الصدارة فى هذه الفلسفات .

اما فى العصور الوسطى فنجد القيمة تندرج تحت اسم الخير الأقصى او الكمال فى فلسفة توما الاكوينى وخاصة فى توحيده ، بين القيمة العليا والعلة الأولى اى الله .

وتحتل القيمة مكانا بارزا فى الفلسفات الاسلامية ممثلة فى فكر الفارابى ، ابن سينا وفى التفكير الأخلاقى عند ابن مسكويه ، الغزالى وفلاسفة الصوفية .

اما فى العصر الحديث : نجد خير من يعبر عن فلسفة القيم مذهب

كانط فالبعض يعده فيلسوفا للقيمة على الاصالة . فكتبه النقديه الثلاث هى موضوعات القيم الثلاث : الحق ، الخير الجمال (*) .

القيمة فى دائرة الانكار : اذا كانت القيمة قد شغلت مكانا هاما فى فلسفات العصر القديم والوسيط والحديث الا أن بعض الفلسفات المعاصرة قد رفضت فلسفة القيم ووضعتها فى دائرة الانكار ، ذلك لانها ترى أنها تبحث فى اشباه قضايا وليست قضايا .

ويتفق فلاسفة الوضعية المنطقية وفلاسفة التحليل من امثال رسل ومور وفتجنشتين وكارناب وآير وغيرهم على استبعاد كل ما يخرج عن دائرة قضايا العلوم الرياضية والتجريبية لانها وحدها هى التى تحمل معنى ، وغيرها من القضايا والعبارات لغو باطل وكلام بلا معني فالقيمة ليس لها مكانا فى هذه الفلسفات لان احكام القيمة ليست قضايا مما يوصف بالصدق أو الكذب . فالاحكام الخلقية كما قال هيوم من قبل ، وبعده فلاسفة التحليل وعلى رأسهم آير مجرد عواطف وانفعالات واحساسات وليست احكاما عقلية تخضع للتجربة والتحليل . ويرى رسل أن مادة الاخلاق تباين مادة العلوم لانها محض مشاعر وانفعالات وليست مدركات حسية (٦) .

ويذهب كارناب الى معنى قريب من هذا حين يؤكد أن فلسفة القيم والاخلاق وكل فلسفة معيارية تتناول اشباه قضايا ليس لها أى مضمون منطقى ، لانها تعبر فقط عن احساسات ورغبات وعواطف اننا يجب أن نتناول المسائل الفلسفيه من وجهة النظر المنطقيه البحته (٧) .

(*) نقد العقل الخالص (النظرى) ، نقدالعقل العملى ، نقد الحكم .

(٦) د . صلاح قنصوه : نظرية القيمة فى الفكر المعاصر ص ٢٠ .

(٧) د . عزمى اسلام : محاضرات في الميتافيزيقيا . ١٩٧٦ ص ٢٨

طبيعــة القيمــة :

تباينت آراء الفلاسفة عن السؤال عن طبيعة القيمة بتباين الاتجاهات والنزعات التى تعالج هذه المشكلة ، ولكن اغلب الباحثين قد عرضوا لهذه المشكلة من خلال الاجابة عن ثلاث تساؤلات رئيسية :

(١) هل القيم تعد وسيلة لغاية أم أن ألقيم غايات فى ذاتها ؟

(٢) هل القيم ذاتيه ام موضوعية ؟ (٣) هل هى نسبيه أم مطلقه ؟

للاجابة عن السؤال الاول نقول : ان القيم صنفان :

صنف يلتمس لذاتــه ويطلب لغــايه ، ، ويكون مطلقــا لايحده زمان ولا مكان ، وصنف نسبى ينشده الناس كوسيلة لتحقيق غاية وهذا يختلف باختلاف حاجات الناس ومطالبهم .

القيم الاولى يطلق عليها اسم القيم الباطنه الذاتية أما الثانية فتسمى بالقيم الخارجية أو الوسيلية Instrumental (٨) .

ولهذا نحكم على الا شياء بانها قيم فى ذاتها اذا لم تكن وســـيلة لتحقيق غاية اخرى . والقيم فى ذاتها هى موضوع دراســـة الميتافيزيقــا أو ما بعد الطبيعة اما سائر القيم الانسانيه الاخرى فهى موضوع دراســة كل فلسفة القيم .

فالحق ، الخير والجمال تعد قيم مطلقة أو غايات فى ذاتها لا وسائل لتحقيق غايات . فالخير الاقصي عند افلاطون أو الخير فى ذاته هو ماهية خالصة وهو القيمة التى تصدر عنها سائر القيم الاخرى ، وبهذا المعــنى يكون أفلاطون هو أول من وضع أصول فلسفة للقيم (٩) .

---

(٨) د . توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٣٧٩ .
(٩) د . نزلى اسماعيل : فلسفة القيم ص ٥٦ : ٥٨ .

أما المسالة الثنيه التى تتعلق بطبيعة القيمه : هل القيم ذاتيـه ام موضوعيه بمعنى هل هى صفة عينية للأشـياء لها وجودها المستقل عن العقل الذى يدركها أم هى من وضع العقل واختراعه ؟

ذهب نيتشه الى أن القيم مبدعـات بشرية عملت على خلقها بعض الاعتبارات الأخلاقية الخاصة ، وكان القيم « أوهـام » أو « أصنام » ابتدعتها الذات البشرية من العدم دون أن يكون لها « أصول » أو جذور فى صميم الحقيقة الموضوعية (١٠) .

ويرى هارتمان فى كتابه : « الأخلاق » Ethics فى فصـل بعنوان : الظاهرة الأخلاقية Ethical Phenomena : « أن للقيـم وجودها الخاص فى استقلال تام عن تقييماتنا الخاصة ، بدليل أنها تفرض نفسها على كل وجدان بشرى بطريقة أولية حدسية .

وقد نعترض على هذا الراى فنقول مثلا ان الناس جميعا لايدركون القيم أو لايستطيعون التمييز بينها ، مما يدل على انها ليست مبـادىء موضوعية مطلقة ، بل هى مجرد ظواهر ذاتية نسبية .

ويرد هارتمان على هذا بقوله أن المسئول عن عجز بعض الأشخاص عن ادراك القيم انما يرجع الى انعدام النضج أو نقص التربية لديهن . فضعف بعض الأشخاص من حيث مدى احساسهم بالقيم ظاهرة سيكولوجية لاتطعن فى موضوعية القيم . فالقيم نفسها لاتتغير وانما الذى يتغير هو ادراكنا لها اونفاذ بصيرتنا اليها .

ولهذا يقرر هارتمان أن للأخلاق طابعا مطلقا يتجلى فيما تتسـم به القيم من كلية وضرورة وموضوعية (١١) .

ويرى البعض الآخر ـ خلافا لهذا ـ أن القيم ذاتيه انسانيه يصعب قياسها لأنها تعبر عن معنى أو فكرة ، نستطيع أن نعيها أو نشعر بهـا دون أن نحددها (١٢) .

---

(10) Nietzsche, Beyond Good and Evil (From Ethical Theory) P. 122.
(11) N. Hartman : Ethics. Volume I., P. 228 - 230.
(١٢) د . محمد الصادق العفيفى : الفكر الاسلامى . ص ٥١ .

ونحن نرى أن القيم ذاتيه موضوعية ، لأن القول بذاتية القيـــم فقط أو موضوعيتها فيه مغالاه ٠

القيم ليست ذاتية صرفة ولا موضوعية مطلقة ، ان فيهـا عنصـر ذاتى ولكن مردها الى صفة الموضوع الذى توجب الحكم عليه بانه حق او خير او جمال ٠ ونستطيع أن نقول ان القيم التى تتسم بالموضوعية قيم مطلقة بينما القيم الذاتية هى قيم الوسائل ٠

وتتفرع عن القول بذاتيه القيم او موضوعيتها مسألة ثالثة تتعـلق بنسبية القيم أو اطلاقها ٠ ولكن ايضا ليس كل من أقر بموضوعية القيمة يسلم باطلاقها ، وليس كل من يقول بذاتيتها يقر بنسبيتها ٠

هكذا اختلفت نظرة الفلاسفة لأنماط القيمة وبيان طبيعتها ٠ ولأن الفكر الانسانى فى تجدد مستمر ، ولأن القيمة مرتبطة فى جوهرهـــا بالانسان لذلك يصعب تصنيفها الى ذاتية او موضوعية ، نسبية أو مطلقة

ذلك ان كل من يتحدث عن القيمة انما يتحدث عن الانسان بما له من فاعلية تسعى الى غاية ٠ فالقيم ســواء اكانت طبيعية أو اجتماعية أو اقتصادية أو مثالية أو وسيلية انما تتعلق فى النهاية بالانسان الفاعل الذى تقع عليه مسئولية التقويم ٠

شمـــول القيمـــــة :

القيم وحدها هى الكفيلة بحل الصراعات والأزمـات التى يتعرض لها الانسان نتيجة التطور فى العلم والتكنولوجيا ، فهى توجد نوع من التكامل او التركيب لكل جوانب الوجود والحياة ٠

وتتميز الفلسفة عن العلم بانها نظرة كلية شاملة تحيط بكل الجوانب ٠ الجزئية وتتجاوز هذا لتؤلف نظره كلية للانسان تقوم على تصـور قيمى بارز له وللعالم معا ، لهذا فهى قادرة وحدها على ما يعجز عن ادائه العلم ، فهى تمكننا من أن نحقق الأهداف البعيدة التى تجاهد البشرية

من أجلها وتحفزنا على أن نساهـــم فى تحقيقها ما استطعنا إلى ذلك ســــبيلا .

أما القيم الدينية فهى تفوق القيم جميعا . فالدين هو أساس القيم وهو والوعى بها والسعى دائما الى تدعيمها (١٣) .

والقيم الدينية نابعة من الأديان ، لهذا فهى قيم روحية قادرة على هداية الانسان لأنها من صنع الله الذى خلق النفوس وأوردها فجورهـا وتقواهـــا .

والاسلام حين جاء أشاع بين الناس قيما جديدة على غير ما كان معتاد لدى الناس من القيم السائدة بينهم ، وأخذ يدعو الى اعتناق هذه القيم عن طريق الحكمة والموعظة .

قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم » (١٤) .

ولما كانت القيم فى جوهرها متقابلة متنافــرة مع بعضها البعض كالايمان والفسق ، والتقوى والفجور ، والصــلاح والفســاد ، والضلالة والهدى ، فقد وجد من يعتنق قيم معينة ويتصادم مع من يعتنق ضد هذه القيم ، لذلك كان النبع السليم للقيم هو الدين . وقد جاء الاسلام بقيمه السامية لكبح جماح تلك القيم المتضادة .

والعقل الانسانى يؤمن بالقيم الدينية لأنهـــا وجدت لرعايته على الوجه الأكمل ، والصراع الذى يقع فيه الانسان نتيجه لنظرته التعددية الى القيم انما يجد وحدتها فى الدين(١٥) .

كما ترتبط القيم بالفلسفة والدين ، فهى ايضا ترتبط بالأخـــلاق والفن والمجتمع بحيث يمكن القول بأن القيم شاملة لكل جوانب المجتمع

---

(١٣) د . صلاح قنصوه : نظرية القيمة فى الفكر المعاصر . ص ٢٣٥
(١٤) النحل : آية ١٢٥ .
(15) J. N. Findaly : Values and Intentions. P. 254.

بما فيه من تجليات . فالقيم مستمدة من الأديـن من ناحية ولها عـــلاقه وثيقة بالفلسفة الانسانيه التى تهدف الى سعادة الانسان من ناحية اخـرى واذا كان الانسان لايقنع بوجوده ووجود العالم من حوله على نحو ما هو كائن ، فبوسعه عن طريق الفن أن يحقق وجوده الذى يحس انه لم يكتمل بعـــد .

فالفن له دور بارز في تحقيق الانسجام لكل ما يصدر عن الانسان من ضروب النشاط فى المجتمع ويعمق جذورها فى النفس ويصـــقل جوانبهـــا .

واذا كان الدين أساس القيم ، فإن الأخلاق هى القوة الروحيـــة الكبرى التى استطاعت أن تعلو بالانسانية الى مستوى ارقى بكثير من المستوى الطبيعى الخالص .

واذا كان العلم هو عالم الضرورة والحتمية ، فان الاخـلاق هى عالم المسئولية والحرية .

وفلسفة القيم تدعو الى حرية الانسان ، هذه الحرية هى الأصـل في وجود القيم وهى الدليل على قدرة الانسان ومكانته فى هذا العالم .

وهناك صلة وثيقة بين الدين والأخلاق ، فاذا كانت القيـم مستمدة من الدين ، فانه من خلال العلاقات التى تربط بين الانسان ودينه نستشف أصول الأخلاق التى تعلمها الانسان من القيم الدينية .

فالقيم الاخلاقية ملازمة للقيم الدينية ، والفصل بينهما هو بمثـابة فصل الفروع عن الجذور ، وهذا الفصل يؤدى الى خلق الجرائم وانحدار المجتمع .

ويبقى تسـاؤل :

هل يمكن القول بان هنك قيم معرفية أو قيم علمية تماما كالقيـم الدينية والأخلاقية ؟ وهل يمكن أن تعد هذه القيم قيما محورية تؤثر في حياة الشعوب ؟

نجيب على ذلك فنقول أن المعرفة قديمة قدم الانسان ذاته ، وهى قيمة ثابتة لاتتغير . فالانسان دائما يبحث عن الحقيقة ويسعى الى المعرفة واستطلاع ما حوله .

والمعرفة كقيمة تعتمد فى جزء منها علي الخبرة الانسانية الموجودة فى العقل من ناحية ، وعلى ربطها بالواقع من ناحية أخرى .

وقد يحدث صراع بين القيم الراسخة فى عقل الانسان من ناحية ، والواقع من ناحية أخرى لـذا علينا أن ننقى العقـل مما قـد يعلق به من افكار خاطئة ثم نصقله بالمعرفة وبذلك ينتفى التعارض بين القيم التى نكتسبها عن طريق الدين وبين القيم الخارجية (١٦) .

فالعالم يبدأ مع استقلال العقل والفكر بعيدا عن كل سلطة خارجة .

أما عن أثر العلم فى حياة الشعوب فنحن لانستطيع أن ننكر قيمته ولكنه وحده لايستطيع تحقيق السعادة للانسان ، بل لابد من تضـافر القيم الدينية والأخلاقية حتى يمكنها حل المشاكل التى يعجز العلم عن حلهـا .

(16) J. N. Findaly : Values and Intentions. P. 255 — 259.

الفصل الثانى

القيم الأخلاقية فى الفكر الاسلامى

حـدود القيـمه :

ترتبط القيمة فى الاسلام بمفهوم الأمـر والنهى ، الثواب والعقـاب والأمـر والنهى يكون من سلطة عليا هى التي تامـر وتنهى ، تثيب وتعاقب وتراقب وتحاسب المنحـرفين فى سلوكهم عن الصراط المستقيم .

وهذا الأمر فيه نـوع من الالزام — بالمعنى الحديث لهـذه الكلمة Obligation — أي الواجب ، ولكنه لايعنى الضرورة بقدر مايعنى الحرية . « لا اكراه فى الدين » .

قال تعالى : « ولو شاء ربـك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (١) .

ويؤكد القرآن الكريم مفهوم الأمر والنهى ويرى أنه مفهوم فطرى فى الانسان .

قال تعالى : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » (٢)
فالله قد خلق النفس الانسانيه واعطاها فى نفس الوقت القدرة على تبين الفجور والتقوى أى الشر والخير .

وفى قوله تعالى : « الم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » (٣) .

فالله قد أعطى الانسان القدرة على الاهتداء وذلك بالحواس ، العين اللسان ، الشفاه) ثم توجيه الله للانسـان الى ما هـو خير وما هو شر « وهديناه النجدين » . فالأمر الالهي أو الالزام هـو القاعدة الأساسية

---

(١) سورة يونس : آيه ٩٩ .
(٢) الشمس آيه ٧ ، ٨
(٣) البلد : آيه ٨ — ١٠ .

والعنصر الجوهرى الذى يدور حوله كل النظام الاخلاقى ، والذى يؤدى فقده الى سحق جوهر الحكمة العملية ذاتها ، ذلك انه اذا لم يعد هنــاك أمر الهى ، فلن يكون هناك مسئولية ، واذا عدمت المسئولية فلا يمكن أن تسود العدالة وحينئذ تحدث الفوضى ويفسد النظام ، ليس فقط فى مجال القانون ولكن ايضا فيما يسمى بالمبدأ الاخلاقى (٤) ٠

واذا كان الأمر الالهى فطريا فى نفس الانسان فانه لابد من صقل هذه الفطرة حتي تظهر وتتبلور وتكتسب قيما اخلاقية سليمة ٠

ومن الآيات التى تحث على ذلك قوله تعالى :

« قد أفلح من ذكاها ، وقد خاب من دساها » (٥) ٠

« واما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » (٦) ٠

فالدعوة فى القرآن واضحة الى ضرورة صقل النفس والعقل من اجل اتقان حكم الفعل الأخلاقى ٠

جملة القول انه اذا كان الأمــــر الخلقى مفطورا في نفس الانسان الا انه من الضرورى صقل هذا المفهوم واكسابه قيما جديدة عن طـريق الواقع الخارجى ، لأنه اذا اقتصر الامر الخلقى على الفطرة وما وهبنـا الله اياه فحسب لتساوى البشر جميعا ولا متنع العقل الإنسانى وما يؤديه من وظائف ، وهذا يناقض ما ينادى به القرآن من الدعوة الصريحة الى احترام العقل والى التدبر والتفكير فى مخلوقات الله ٠

مصادر الأمر الخلقى :

القرآن هو السلطة التشريعية الأولى التى يعتمد عليها الأمر الخلقى فى الاسلام ٠

---

(٤) د ٠ محمد عبد الله دراز : دســـتور الاخـــلاق فى القرآن ٠ ترجمة د ٠ عبد الصبور شاهين ص ٢١ ٠

(٥) الشمس : آية ٩ ، ١٠ ٠

(٦) النازعات آيه ٤٠ ٠

قال تعالى : « ان الحكم الا لله » (٧) « لا معقب لحكمه (٨) وقد بعث الله سبحانه وتعالى فينا رسوله ، لا ليكون مجرد خاضــع لشرع الله فحسب ، بل ليكون أول خاضع له :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وانا أول المسلمين (٩) .

والحق ان جميع العلماء متفقون على أن يروا فى تعاليم الســـنة النبوية مصدرا ثانيا عظيم الأهمية للشريعة الاسلامية . بعد القرآن .
والقرآن نفسه قد طلب آلى المؤمنين أن يطيعوا النبى دون حرج ، ومن ذلك قوله تعالى :

« ومن يطع الرسول فقد أطاع الله (١٠) .
الطاعة اذن من المبادىء الأخلاقية الأولى التى يبنى عليها كل خلق حسن وكل صلاح للانسان فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتــم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خيرا لكم واحسن تاويلا .
ويمكن القول اذن أن مصدر الأمر الخلقى فى الاسلام هو التعاليــم المنزلة فى القرآن الكريم والسنة النبويــة الشــريفة وكذلك الاجمـــاع والقياس .
وسلطة الاجماع يمكن أن تستقى من بعض النصوص القرآنية مثـــل قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (١١) .

---

(٧) الانعـــام ٥٧
(٨) الرعـــد ٤١
(٩) الانعام ١٦٢
(١٠) النســاء ٨٠
(١١) النســاء ٥٩

واذا لم يرد الحكم فى نص الكتاب أو السنة فان القياس يحاول ان يكشف عنه فى روحهما وفى مفهومهما العميق ، فالله سبحانه وتعالي وحده هو المشرع وليس الآخرون سوى مقررين لأمره بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . فالقياس يقوم مسترشدا بالنصوص المنزلة او يجىء الاجتهاد فى الرأى من اجل تبين الحكم فى الجزئية المطلوب دراستها والتى لم يرد فيها النص أى دراسة .

سمات الأمر الأخلاقى : (*)

يؤكد القرآن الكريم والسنة النبوية على شمول الأمر الخلقى وضرورته قال : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا »(١٢) .

وفى قوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » (١٣) .

وقوله تعالى : « ليكون للعالمين نذيرا » (١٤) .

وفى قوله ﷺ :

« انى لا اصافح النساء ، وانما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة .

أما عن الضرورة الأخلاقية فى القرآن ، ففى قوله تعالى :

« كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا (١٥) .

(*) راجع في هذا د. فوقيه حسين : فلسفة القيم ص ١٩٧ ، د . محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ترجمة . د . عبد الصبور شاهين ص ٥٣.

(١٢) الاعراق : ١٥٨

(١٣) البقرة ٨٣

(١٤) الفرقان : ١

(١٥) النساء : آية ١٣٥

وفى قوله تعالى :

« ولاتفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين » (١٦) ٠

فالشمول والضرورة سمتان تظهـــران فى هذه النصـــوص المنزلة الكريمة ، ولكن يجب أن نميز بين الضرورة الأخـــلاقية فى الاســـلام والضرورة المنطقية أو المادية ٠

فالضرورة المادية ممثلة فى قوانين الطبيعية تفرض نفسها على الفرد بحيث يجد نفسه مكرها على تقبلها وتحمل نتائجها دون أن يملك القدرة على تغييرها ٠

اما الضرورة الأخلاقية فهى بعكس ذلك ، لأن فيها حرية اختيار ، القانون الأخلاقى يأمر ولا يقهر ، فهو يتصف بالمرونه ، ويؤكـد القـرآن هذا المعنى فى قوله تعالى :

« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » (١٧) ٠ فعلى الرغم من ان الأمر الأخلاقى يؤكد على مفهوم الشمول والضرورة الا أنه لايفرض على الانسان الا عندما يكون ممكنا ٠ أى أنه يخضع لمفهوم التــدرج فى الأفعال ٠

قال تعالى :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا » (١٨) ٠ فهذه الآيات تبين الأمر ولكن فى حـدود الطاقة الانسانية ومدى التيسير على الناس لأن الدين الاسلامى دين يسر ،

---

(١٦) الاعراف ٥٦ ٠
(١٧) البقرة : ٢٥٦
(١٨) البقرة ٢٨٦

ومن هنا كانت الحرية وكان الاختيار وكان تمييز الأمر الأخلاقى عن المادى أو المنطقى .

(*) المسئولية :

يرتبط بمفهوم الأمر الخلقى نتيجتان يستلزم احدهما الآخر بدوره ويؤيدهما المسئولية والجزاء .

والمسئولية امكانية أى إستعداد فطرى فى الانسان وهى القدرة على أن يلزم الانسان نفسه ثم يفى بعد ذلك بهذا الالتزام ، وبالتالى فالمسئولية الأخلاقية سمة مميزة للانسان العاقل فى مقابل الضرورة التى تحكم الموجودات فى عالم الطبيعة .

والمسئولية قد تنبع من الذات وقد تاتى من الخارج ، ولكن سواء اكان المرء مسئولا أمام نفسه أم أمام الانسان أم امام الله فان حكم المسئولية يصدر دائما بواسطة السلطة التى اصدرت الأمر اولا ، وهنا نجد ثلاث أنواع من المسئولية :

المسئولية الدينية ، والمسئولية الاجتماعية ، المسئولية الأخلاقية .

والقرآن يذكر هذه الثلاثة مجتمعة فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون » (١٩) .

ويمكن القول بان كل مسئولية هى – بمعنى ما – مسئولية أخلاقية متى ارتضيناها ومتى كانت صادرة عنا ، ونتبين ذلك فى قوله تعالى : « وقد أخذ ميثاقكم » (٢٠) .

(*) د. محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن . ترجمة د. عبد الصبور شاهين ص ١٣٦ : ٢٤٠ .

(١٩) الانفال : ٢٧

(٢٠) الحديد : ٨

وفى قوله تعالى : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا »(٢١) .

شروط المسئولية :

١ - **الطابع الشخصى** : المسئولية الأخلاقية والدينية لها سمة شخصية ، ونتبين ذلك فى قوله تعالى :

« لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »(٢٢) .

« ومن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى » (٢٣) .

« اليوم بخزى كل نفس بما كسبت ، وان ليس للانسان الا ما سعى »(٢٤) .

فالثواب والعقاب لا يجزى عليه الا الشخص نفسه .

٢ - **الأساس القانوني** : هذا هو الشرط الثانى للمسئولية والقرآن يعلمنا أن احدا لن يحاسب على افعاله دون أن يكون قد علم مسبقا باحكامها .

٣ - **العنصر الجوهرى فى العمل** : المسئولية لا يمكن ان تثبت فى نظر القرآن الا بشرط ان تذيع شريعة الواجب ويعرفها كل ذى علاقة بها ، وان تكون حاضرة فى عقله لحظة العمل . فالعمل اللا ارادى يجب أن يستبعد من مجال المسئولية .

٤ - **الحرية** : لكى تكتمل شروط المسئولية ، لايكفى أن يكون المرء قد عرف الشريعة ، وعمل بارادة وعلى بصيرة من الأمر بل لابد أن نبحث عن قدرتنا وأن نقرر ان فاعلية جهدنا أى حريتنا هى الشرط الرابع الذى تكتمل به المسئولية .

---

(٢١) الاسراء : ٣٤ .
(٢٢) الاسراء : ١٥ .
(٢٣) غافر : ١٧ .
(٢٤) النجم : ٣٩ .

والقرآن يذكرنا فى مواضع كثيرة بهذه الحقيقة ·

يقول تعالى : نذيرا للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر[٢٥] ·

والحرية لاتناقض المسئولية : قال تعالي : « يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون »[٢٦] ·

اذن الشروط الكافية لمسئوليتنا أمام الله وأمام انفسنا هى أن يكون العمل شخصيا ، اراديا ، تم اداؤه بحرية (أى دون اكراه) ، وأن نكون على وعى كامل وعلى معرفه بالشرع أو القانون ·

الجـــزاء :

بعد الالزام والمسئولية ياتى الجزاء وهو تقويم لموقف الانسان تجـاه مسئوليته والزامه ·

وللجزاء ميادين ثلاثة هى :

الجزاء الأخلاقى ، القانونى ، أخيرا الجزاء الالهى[٢٧] ·

شروط القيمة فى الاسلام

للقيمة شروط أساسية لا يمكن أن نتصور وجودها بدونها وهـــي : حرية الارادة ، صدق النيه ، الغيرية (الايثار للتنزه عن انتظار العوض ، الايمان بالله ·

وبجانب هذه الشروط الجوهرية توجد للقيمة الأخلاقية شــــروط ثانوية تؤدى الى كما لها ، وهى الممارسة الفعلية أو العمل ، رد الفعل ·

١ ـ حرية الارأدة :

من البديهى أن تكون حرية الارادة شرطا للفضيلة أو للقيمة الخلقية

---

(٢٥) المدثر : ٣٧ ، ٣٨ ·
(٢٦) النحـل : ٩٣ ·
(٢٧) راجع فى هذا الكتاب د· فوقية حسين : فلسفة القيم ص ٢١٨ : ٢٢٥ ـ كتاب د· محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ٢٦٦ : ٢٨٤ ·

لأنه لا يمكن تصور فعل خلقى ارغم فاعله ارغاما على فعله ، كما لا يمكن تصور مسئولية اخلاقية على فعل قسر عليه فاعله قسرا .

فحرية الارادة : شرط جوهرى للقيمة الخلقية .

وفى الاسلام لا تنتفى الحرية بأثبات ارادة الله النافذة ولا بتوكيد علمه السابق الشامل ، ولا تنتفى ايضا بالاعتراف بضغط الميول الفطرية أو تاثيرات البيئة الاجتماعية والثقافية . ذلك أن انكار الحرية يتبعه انكار المسئولية الخلقية ، وكذلك يتبعه انكار القيمة . فمثلا اذا أكره المسلم على الصدق أو الانفاق الخير فإن عمله هذا لايستحق اية قيمة اخلاقية لأنه يفتقر الى الشرط الجوهرى والضرورى لاكتساب القيمة وهو الحرية(٢٨) .

٢ - صدق النيه :

النيه أو الموقف الباطن هو الشرط الثانى الجوهرى لامكان وجود قيمة خلقية لأى فعل ، وهو عنصر اصالة يميز الأخلاق الاسلامية عن الأخلاق اليهودية والمسيحية .

ومن الوجهه الأخلاقية لا قيمة افضائل العدل والصدق والرحمة والعفو وغيرها اذا لم يسبقها عقد نيه اداتها طاعة الله .

يقول : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم »(٢٩)

ويقول الرسول : « انما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء مانوى .

ويقول أيضا : ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم » .

فالقلب السليم أو الموقف الباطن وصدق النيه لله تعالى هو شرط القيمة عند الله .

---

(٢٨) د. احمد عبد الرحمن ابراهيم : الفضائل الخلقية فى الاسلام ص ٤٠ .

(٢٩) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

٣ ـ الغيرية :

الغيرية هى اتجاه الفعل الي تحقيق خير الآخرين ممن ليسوا من الأهل . وفى هذا الشرط تناقض الأخلاق الاسلامية الأخـــلاق النفعيـــة الأوربية الحديثة والمعاصرة التى اعتبرت الغيرية قاعدة مشئومة أو أنانية مقنعة ـ كما سنرى فى الحديث عنها فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . وفى الاسلام كلما كان العمل أقرب الى الغير كلما كان أكثر قيمة . والعمل الأنانى أى الذى يهدف الى المنفع الذاتية لا يدخل ضمن القيم الخلقية لأنه يفتقر الى الغيرية .

٤ ـ الايمان بالله :

لاشك أن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر شـــرط جوهرى للقيمة ، بل يمكن أن يعد شرط أولي أيضا . قال تعالى :

« ومن يكفر بالايمان فقد حبط عملـــه وهـــو فى الآخـــرة من الخاســرين »(٣٠) .

فالكفر بالله يحبط العمل ويجرده من كل قيمة أخروية ، وكل عمـل صالح ـ عبادة أو معاملة ـ لاتكون له أية قيمة أخروية الا اذا كان قـد تم على شرط الايمان بالله .

وفى السنه الشريفة مايوضح ذلك . فقد سئل النبى ﷺ عن رجل فى الجاهلية كا نيصل الرحم ويحسن الجوار ويكرم الضيف ، فقيل هل ينفعه هذا فقال لا لأن هذه الفضائل لن تكون ذات قيمة عند الله بسبب افتقار صاحبها الى شرط الايمان . والكافر لا يتضمن افعاله صدق النيه لله لأنه لا يتطلع الى الثواب الأخروى بل كل أعماله تتجه الى الناس وهم عنده مصدر الثواب والعقاب . فالأخلاق غير الدينية أخلاق أنانية فى طبيعتها ومن هنا فهى قاصرة .

---

(٣٠) المـــائدة : آية ٥ .

١ — ويترتب على ان القيمة من عند الله واحكامها صادرة عنه ان لهـــا صفة القدسية والدين ٠

فالشريعة الاسلامية تحترم وتطاع طاعة اختيارية تنبع من ذات الفرد ، لانها تقوم على الايمان ، والايمان يكمن فى القلب وبالتالى فالمؤمن يتصرف انطلاقا من ايمانه هذا وتأتى اعماله عن تقـدير وفهم ٠ والقوانين الوضعية ليس لها مثل هذا التقـدير فى النفس وبالتالى ليس لها الاحترام والهيبة اللذين تتمتع بهما الشـريعة الاسلامية فى نفوس المؤمنين بها(٣٧) ٠

٢ — الجزاء فى الشريعة دنيوى واخروى ، وفى هذا اختلاف عن الجزاء فى القوانين الوضعية فهو دنيوى فقط ٠ ولهذا فالجزاء فى الاسلام أوسع واشمل منه فى القانون الوضعى ، وذلك بسبب شمول القانون الاسلامى لجميع شئون الأفراد ومنها الدينية والأخلاقية(٣٨) ٠

٣ — القيمة فى الاسلام عامة وباقية ، وهى تصلح لكل الناس اى لجميع البشر فى كل زمان ومكان ، وهذا ما نص عليه فى قوله تعالى : « قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا »(٣٩) ٠
وقوله : « وما أنزلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »(٤٠) ٠

٤ — القيمة فى الاسلام تجمع بين الأصالة والتطور : الأصالة والثبات فى الاصول والاهداف (الشريعة غير قابلة للنسخ) ، والتطور والمرونة فى الفروع والوسائل ٠ فالاجتهاد فى الاسلام بابه مفتوح ومجالـــه كبير فى هذا التشريع وهو قابل للتطور على نحو تحقيق مصالـــح

---

(٣٧) د٠ فوقية حسين : فلسفة القيم : ص ٢٣٤ ٠
(٣٨) د٠ محمد يوسف موسى : الاسلام وحاجة الانسانية اليه ص ١٩٦ : ١٩٧ ٠
(٣٩) الاعــراف : ١٥٨ ٠
(٤٠) سـبا : ٢٨ ٠

الناس فى كل عصر ومكان ، ويفى بحاجاتهم ولا يضيق بها ، ولكن مع ثبات الأصول والأهداف .

٥ — مفهوم القيمة فى الاسلام يجمع بين حق الفرد وحق الجماعة . فالشريعة الاسلامية تراعى حق الفرد والجماعة دون ظلم احدهما على الآخر . ومن الأمثلة على ذلك نظام الملكية . فالملكية المطلقة مرفوضة فى الاسلام ، والشريعة تضع قيودا على طرق التملك والتوزيع ، وهذ القيود بعضها اخلاقية يقوم على خشية الله ، وبعضها قانوني تنفذه السلطة الخارجية .

٦ — عدم الحرج ورفع المشقة

وردت آيات كثيرة بالقرآن الكريم تصرح بان من أسس التشريع الاسلامى دفع الحرج فى الأمة ، ورفع المشقة عن كاهلها . ويتمثل ذلك فى قوله تعالى :

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج »(٤١) .

« وما يجعل عليكم فى الدين من حرج »(٤٢) .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »(٤٣) .

« يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا »(٤٤) .

ومن الآيات التى تدل على رفع المشقة والتيسير على الناس :

قوله تعالى : « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات عن الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدة من أيام اخر ... »(٤٥) .

---

(٤١) المائدة : ٦ .
(٤٢) الحج : ٧٨ .
(٤٣) البقرة : ١٨٥ .
(٤٤) النساء : ٢٨ .
(٤٥) البقرة : ١٨٥ .

فالله قد رفع المشقة عن العالمين في العبادات والمعاملات والعقوبات فمثلا قصر الصلاة فى حال السفر ، الفطر للصائم اذا كان مريضا أو على سفر ، فرض الحج مرة واحدة فى العام لأن به مشقة وذلك كله للتخفيف والتيسير على الناس .

٧ - القيمة فى الاسلام تهدف الى بناء مجتمع قيمى سليم . فاســـاس مفهوم القيمة فى الفكر الاسلامى هو اصلاح حال المجتمع . فالقيم الاسلامية لا تهتم فقط بالسلوك الانسانى ووضع المقاييس والمعايير التي يقوم على أساسها ولكنها تهتم مع ذلك باصلاح السلوك وعلاجه اذا انحــرف(٤٦) .

فالمهمة الأولى من ارسال جميع الأنبياء والمرسلين هى اصـــلاح حال المجتمع وارشاد الانسان الى حسن الصلة بينه وبين ربــه وتوثيـــق العلاقة على أساس الصدق فى الايمان والاخلاص في التوحيد .

قال تعالى : « ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »(٤٧) .

فالاسلام يهدف الى اقامة المعايير الحقة لواقع الانسان فى الدنيـــا والآخرة ووضع القيم كاساس لسعادة الانســـان وخيره ، وبالتـــالى فإن الاسلام بما يشتمل عليه من عقيدة وشريعة يؤكد ان القيم التى تضعها هذه العقيدة والشريعة هى بمثابة الطريق الواضح للانسانية .

فالاسلام اذن هو الفلسفة الكبرى وهو يمثل الفكر الحاضر ، فهـــو ليس دين سماوى فحسب ولكن حضارة وثقافة تفتح أمام الانسان طـرق متعددة وتقدم له صرح من القيم يهيىء له مجتمع انسانى .

فالاسلام قد وضع الأسس والمبادىء لبناء المجتمعات السليمة .

---

(٤٦) د. عبد الفتاح أحمد : مفهوم الأخلاقية : دراسة فلسفية دينية ص ١٢ .

(٤٧) الشـورى : ١٣ .

وان كان ثمة قيم فانها من مبادىء الفكر الاسلامى ، واذ انتشرت هذه القيم بين المجتمعات والفلسفات المتعددة وانتشر الفكر الاسلامى بين البلدان ، واخذت منه البلدان الاسس القيمية لبناء مجتمع قيمى هادف(٤٨) .

والآن وبعد أن عرضنا لخصائص القيمة فى الاسلام تقول ان هذه الخصائص لا تنطبق على فلسفة بعينها ولا على عصر معين وانما هى عامة وباقية تصلح لكل زمان ومكان ، ذلك لانها مرتبطة بالدين ونابعة منه ، فهى من عند الله تعالى ، والدين يوحد ويسود كل القيم .

القيم هنا – ان جاز التعبير – اشبه بالقيم الميتافيزيقية المطلقة التى ينادى بها فئة من الفلاسفة كالخير والحق والجمال فهى قيم موضوعية مطلقة لا تتغير بتغير المكان والاشخاص .

والقيمة الميتافيزيقية العليا هى الله بوصفه الحق والمطلق واللا نهائى والموجود الاول ، وهذه القيم مستقلة استقلالا جذريا عن نسبية القيم الانسانية والوضعية الاخرى .

فالانسان حين يرغب فى تحقيق القيم المطلقة انما يكون ذلك على نحو مجرد تماما من كل الاعتبارات الشخصية ويرى بعض الفلاسفة الميتافيزيقيين أن اتحاد القيم انما يرجع الى أن لها مصدرا واحدا هو القيمة المطلقة التي تفيض وتشع بكل القيم الاخرى . انها النبع الخالص والمصدر للانهائى لجميع القيم .

ولا معنى للخير والحق والجمال ان لم تكن هذه القيم من الله تعالى ، ولذلك كانت هذه القيم هى ملهمة الانسانية كلها ، وهذا الرأى يقره الدين الاسلامى وما نادى به من عمومية القيمة وشمولها .

(48) P. M. Holt, Amm : The Cambridge History of Islam. P. 509, P. 780.

اما اذا نظرنا الى الجانب الآخر ، وهو النظرة الواقعية الى القيم ، أى اذا انزلنا هذه القيم الى ارض الانسان ، فانها عندئذ تختلط بالتجربة المكانية والزمانية فتفقد الكثير من قدسيتها ومثاليتها ، فنجد من يتحدث عنها بوصفها ذاتية تتعلق بالطبيعة النفسية والسيكولوجية للانسان ، وهى بهذا تشمل الرغبات والميول والعواطف ، وهذه العوامل ليست ثابتة بل متغيرة فتتغير القيمة وفقا لها ، ومن هنا تكون القيم نسبية متعددة ٠

والحق يقال ان القيم لابد ان يكون لها موضوعية وثباتا ذلك ان عدم ثبات القيم سوف يؤدى الى انحراف سلوك الانسان ، ولابد أن يكون لدينا جميعا احساس يعلو القيمة وتسامي قدرها ٠ فالقيم فى الحقيقة تتجاوز حدود الزمان والمكان ، وهى مراكز مشعة فى النفس تنشر نورها على كل من يحاول تحقيقها فى هذا العالم ٠

غايـة القيمة :

هل الفعل الخلقى فى الاسلام يهدف الى تحقيق غاية ؟ وهل الغاية - ان تحققت - هى السعادة أم اللذة أم الواجب أم مزيج من هذه الغايات معا ؟

للاجابة على هذا نحاول اولا ان نذكر بايجاز معانى هذه الألفاظ في المذاهب الاخلاقية ثم نوضح اقربها الى الأخلاق الاسلامية ٠

فمذهب المنفعة هو ذلك المذهب الذى يرى ان المنفعة هى الغايـة القصوى للفعل الخلقى ٠ والمنفعة قد تعنى اللذة أو السعادة ٠ وتبعا لذلك كانت اللذة أو السعادة هى وحدها الخير الأقصى أو المرغوب فيه لذاته ، أى ان الفعل الانسانى لا يكون خيرا الا متى حقق - أو توقع صاحبة ان يحقق - اعظم قدر ممكن من اللذة(٤٩) ٠

---

(٤٩) د٠ توفيق الطويل : مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الاخلاق ص ٢٢ ٠

هذا هو جوهر المذاهب النفعية سواء اكانت مذاهب لذة أو سعادة او منفعة انانية فردية أو عامة ، وهى مذاهب يونانية لكنها اتخذت طابعا جديدا فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة .

والآن نتساءل : هل الأخلاق الاسلامية تضع اللذة أو السعادة أو المنفعة كغاية قصوى للعمل الفاضل ؟ للاجابة على هذا نقول انه بتحليل الفضائل الخلقية وعلى راسها فضيلة العدل التى هى هدف كل تشريع نجد أن الغاية منها تحقيق العدل بين الفرد والآخرين ، وذلك بهدف ارضاء الله واستحقاق ثوابه الأخروى فالغاية القصوى للقيمة فى الاسلام هى السعادة الأخروية ولكن هذه الغاية القصوى لا تتحقق الا بالسعي من اجل تحقيق غاية أخرى قريبة هى المنفعة الدنيوية للآخرين فطالما أن الطريق الى تحقيق السعادة الأخروية يمر من خلال منفعة الآخرين جاز أن نقول ان اخلاق الاسلام مذهب منفعة غيرى ، وان نتخذ من نفع الآخرين مقياسا للقيمة الخلقية للعمل الفاضل (*) .

فالغاية القصوى للفضيلة الاسلامية هى سعادة الدارين والاسلام قد اوجب العمل لمنفعة الناس فى الدنيا فضلا عن النهى عن الحاق الضرر بهم .

والقرآن الكريم ايضا يحث على العمل والسعى والكسب الدنيوى كما انه لا يطلب من المسلم ان ينقطع للعبادة فقط ، .

وهذا فرق بين أخلاق الاسلام واخلاق المسيحية . وفى القرآن آيات تؤكد ان الاسلام يعتمد سعادة الدنيا والآخرة .

قال تعالى :

« فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا ، وماله فى الآخرة من

(*)نعود الى تفصيل مذهب السعادة عند الحديث عن القيمة عند مفكرى الاسلام .

خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسـنة وقنا عذاب النـار »(٥٠) .

— وتؤكد السنه النبوية وجوب السعى من أجل سعادة الدارين . فعن انس أن النبى ﷺ قال :

« ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منها جميعا . فأن الدنيا بلاغ الى الآخرة ، ولا تكونوا كلا على الناس .
(رواه ابن عساكر .)

والخلاصة أن السعادة الآخروية يجب أن تكون هى الغاية النهائية لكن اخذ المسلم بنصيبه من السعادة الدنيوية لا يتناقض مع تلك الغاية .

القيم الأخلاقية وارتباطها بالحضارة :

ارتبطت القيم الأخلاقية فى الاسلام بالحضارة الاسلامية ارتباطـا وثيقا ، واقامت دعائمها على أسس روحية استمدت عناصرها من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف . ذلك أن الحضارة الغربية الأوربية التى استلهمت العلم وانصرفت عن المسيحية بقيمها الروحية العليا ، والمعايير الأخلاقية السامية قد ادركتها الشيخوخة وأخذت تميل الى الانحدار(٥١) .

فالمبادىء الأخلاقية اصبحت كالمومياء المحنطة فى اللفائف وعجـز العلم — وحده — عن اصلاح الطبائع الأخلاقية .

اما الحضارة الاسلامية فقد استلهمت الاسلام فتزاوجت معه ولـم يكن بينهما انفصـال .

— اتخذت الحضارة الاوربية من العلم منهجا لهـا واسـقطت من حسابها الاعتبارات الانسانية والأخلاقية والروحية . والعلم يعتمد على

---

(٥٠) فاطـر : آية ٣٩ .
(٥١) د. احمد عبد الرحمن ابراهيم : الفضائل الخلقية فى الاسلام ص ٢٥١ : ٢٦٢ .

الملاحظة والتجربة ، ومن مقوماته : موضوعية البحث ونزاهة الباحث ٠

والموضوعية هى أن يدرس العالم الظواهر كما هى فى الواقع وليس كما يريد ويتمنى ٠ أما النزاهة فهى اقصاء الذات أو اماتتها ، أى أن يتجرد الباحث عن ميوله ورغباته ويتوخى الدقة والأمانة دون تحيز(٥٢) ٠

– هذا هو العلم الذى تعتمد عليه الحضارة الغربية ، فهل نجح العلم وحده فى اصلاح الطبيعة الأخلاقية للأفراد ؟

الحق يقال ن الانتصارات العلمية وحدها أصبحت لاتكفي الانسان الذى يبحث عن نشأته فى هذا العالم ٠ فهناك قلق يعترى الانسان حين يريد أن يعرف معنى القيم ويسعى الى ما هو اسمى من المادة والى توازنه النفسى والطبيعى(٥٣) ٠

لقد تصور بعض العلماء أن العلم يمكن أن يحل محل الدين ، مثال ذلك أوجست كومت صاحب الفلسفة الوضعية ٠ ولكن الذين ينقدون الدين باسم العلم يخطئون فى تقديرهم للعلم ، فهو يبحث في المادة وفى تغيراتها وكيفية تحويل الطاقة ، ولكن هذه الوسائل العلمية لا تسمح باصدار أى حكم على المبادىء الدينية ٠ وقد ينجح العالم فى تحويل الحديد الى مدفع ويعد هذا اختراعا حتى لو أدى الى تدمير البشرية ٠

– ولكن من العدل أن نقول ان ضمير العلماء قد استيقظ بعد أهوال الحرب العالمية الأولى ، فقالوا ان خصائص البحث العلمى – من موضوعية ونزاهة – لايجب أن تتعارض مع مسئولية العالم ازاء البشرية ٠ فالعالم انسان قبل أن يكون عالما ٠ فالعلم لم يقطع صلته منذ نشأته بالاعتبارات الانسانية ، يتضح هذا فى منهج فرنسيس بيكون الذى كان وثيق الصلة

---

(٥٢) توفيق الطويل : الحضارة الاسلامية والحضارة الأوربية ص ١٢٥ ٠

(٥٣) د٠ نازلى اسماعيل : فلسفة القيم ص ٣ ٠

بحياة الانسان العملية • وفى الفلسفة العملية البراجماتية فى أمريكا التى آثرت البحث فى نتائج الأفكار والمعتقدات وانصرفت عن النظر العقلى المجرد •

– ومع ذلك فالحضارة الأوربية قد اخطات حينما فضلت العلم ومناهجه وقطعت صلتها بالدين ومقوماته الروحية الأخلاقية السامية • وخير دليل على هذه المبادىء السامية خطبة المسيح لحوارييه على الجبل حيث قال :

لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيسر فحول له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سألك فاعطه • سمعتم انه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فاقول لكم : احبوا أعدائكم ، احسنوا الى مبغضيكم ، صلوا لأجل الذين يسيئون اليكم(٥٤) • فاين هذه القيم الانسانية العليا مما ارتكبته الشعوب الأوربية المتحضرة من جرائم واستعمار الشعوب الضعيفة ونهب أموالهم واذلال أهلها •

أما عن الاسلام فقد اعتمدت الحضارة الاسلامية علي مبادىء الاسلام ممثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وعلى مايدعو اليه الاسلام من مبادىء سامية روحية سمحة ، وقيم اخلاقية عليا • ومع هذا لم يغفل الاسلام العلم ، بل على العكس كرم المعرفة ومجد النظر العقلى ودعا الى العلم بالتامل العقلى والتجريبى الحسى •

وآيات القرآن الكريم التى تحث على النظرالعقلى والتامل والايمان القائم على العقل واحترام المعرفة – كثيرة منها قوله تعالى فى أول آية

---

(٥٤) انجيل متى فى العهد الجديد : الاصحاح الخامس وما بعده (نقلا عن د• توفيق الطويل : الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية ص ١٢٧ •

نزلت من القرآن فى سورة العلق « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خـلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » وقوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (٥٥) .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا تتفكرون » (٥٦).

« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » (٥٧) .

« ان في خلق السماوات والأرض واختـــلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » (٥٨) .

« ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٥٩) .

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصـــار ولكن تعمى القـــلوب التى فى الصدور » (٦٠) .

ويعلى القرآن من شان العلم والحكمة : قال تعالي :

« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا اولوا الألباب » (٦١) .

وكما يدعو الاسلام الى العقل والتامل فانه يعيب التقليد ويعيب الغافلين .

« قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر من قوم لا يؤمنون » (٦٢) .

---

(٥٥) الأنعام ١١ .
(٥٦) الأنعام ٥٠
(٥٧) الأنعام ٩٧ .
(٥٨) آل عمران ١٩٠
(٥٩) الروم ٢٤ .
(٦٠) الحـــج ٤٦
(٦١) البقرة - ٢٦٩ .
(٦٢) يونس - ١٠١

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (٦٣) ٠

وهذه الآية دعوة صريحة الى ان التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ٠

هكذا يكرم القرآن العلم والعلماء ويعلى من شان العقل ويدعو الى التأمل والتفكير ٠ فالاسلام دين عقل وحكمة ، ومن هنا كان فلاسفة الاسلام ومتكلموه — ولاسيما المعتزلة — ارباب العقل ودعاةتحكيمه في كل شىء ، وكانت محاولتهم المستمرة للتوفيق بين الشريعة والحكمة ، فمن المستحيل ان يكون فى الدين شىء يناقض العقل ٠

وقد صدق الغزالى حين قال : العقل شرع من داخل ، والشرع عقل من خارج ، والعقل مع الشرع نور على نور ٠

واذا كان الاسلام قد كرم العلم والمعرفة واعلى سلطة العقل فحسبنا أن نقول ان العقل هنا ليس جافا خاليا من العاطفة ومن الروح ، بل ان منطق الاسلام هو المنطق الذى ينظم العقل والروح معا حتى يحفظ التوازن للبشرية جمعاء منطق يبجل القيم الروحية والخلقية ، فلا يتحكم الاقتصاد والسعى الى الربح والتقدم العلمى المدمر في قيم الاخلاق ومبادئها كما يحدث فى الحضارة الغربية ٠

ان التقدم لا يمكن ان يكون نتيجة لعامل واحد ، أيا كان هذا العامل انما هو نتيجة لعدة عوامل متكاملة ، مادى ، ومعنوى ، اقتصادى ، سياسى واخلاقى ٠

ويقول البير شفيتسر A. Schweizer فى كتابه : «فلسفة الحضارة» أن مقومات الحضارة فى جوهرها اخلاقية ، اما غير هذا من مقومات

---

(٦٣) البقرة — ١١٤ ٠

تاريخية ومادية وجمالية فما هى الا مجرد ظروف مصاحبة للحضـارة ٠ وبتاثير المعتقدات الأخلاقية وحدها تتكون العلاقات في المجتمع ٠

فانهيار الحضارة قد حدث بسبب ترك المجتمع للاخلاق (٦٤) ٠

وهكذا رأى مفكر غربى معاصر أن السبب فى انهيار الحضارة الغربية هو اقتصارها الى المقومات الأخلاقية والقيم الروحية التى يدعو اليهـا الاسـلام ٠

والحق أن البير شفيتسر ليس وحده الذى دعا الى أن الحضارة يجب ان تقوم على الأخلاق ، بل ان كثيرين من مفكرى اليوم يردون انحـلال الحضارة الغربية المعاصرة الى تاخر التطور الثقافى والأخـلاقى عن التطور المـادى الذى يبهـر الكثيرين من المعـاصرين ، ومن هـذا نشـا ما نراه اليوم من انحلال الاخلاق وشيوع الجرائم التى لم تكن مالوفـة من قبـل ٠

والحق ان سبب انهيار الحضارة الغربية ليس هو التقدم عن طريق العلم والتكنولوجيا بل هو اساءة استخدام العلم في الحروب وويلاتها ، وفى استعمار الأقوى للضعيف ٠ فبرغم التقـدم العـلمى ومخترعات التكنولوجيا واختراق الفضاء وعجائب الكومبيوتر اختفت القيم الانسانية، وخلت الحضارة العصرية من الدوافع الروحيـة والبواعث الأخلاقيـة

موقف الاسلام من القيم الأخلاقية :

الهدف الأول للاسلام هو نشر المبادىء الأخلاقية السامية ، فالاسلام - وهو دين لكل زمان ومكان - يقوم على العقيدة والشريعة والأخلاق ٠ والأخلاق الاسلامية ليست أخلاقا روحية فحسب كما هو الحال فى المسيحية

---

(٦٤) د٠ توفيق الطويل : الحضارة الاسلامية والحضارة الأوربية ص ٧٠ ٠

أو الرواقية قديما ، وانما هى اخلاق دنيا ودين بمعنى أنها تجمع بين النظر والعمل ، تعنى تدبير شئون الدنيا وتصلح للانسان فى آخرته .

فحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق فانما كان يعنى أن الاخلاق سلوك في الحياه ويجب أن يحيـــا المرء باخلاق قويمة وان يتمسك بها مهما تغيرت الظروف ، فالاخـــلاق الاسلامية هى اخلاق للانسانية كلها ـ لا تتغير مع الزمان والمكان .

فالاسلام يدعو الى مكارم الاخلاق : « لقد كان لكم فى رســول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (٦٥) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن من خياركم احسنكم اخلاقا » .
« رواه الامامان البخارى ومسلم »

وأول خلق اسلامى انما هو الايمان بالله وحده لا شريك له وهو قمة الاخلاق الاسلامية ، ولايعبا بحسن الخلق مالم يكن لصاحبه الايمـــان . فالايمان بالله شيء تقتضيه طبيعة الانسان من حيث هو انسان ولهذا فان من لم يؤمن بوجود الله فانه ليس فى عداد الانسان وانما هو من أولئك الناس الذين قال الله تعالى بشـانهم :

« ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا » (٦٦) .

فالايمان هو مصدر القيم الاخلاقية وهو القوة التى تعصم الانســان من الشر وتدفعه الي الخير . يقول رســـول الله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت .

والايمان لا يكتمل الا بالخلق الكريم ، فالاخلاق تقوى الايمـــان والايمـان يقوى الاخـلاق .

---

(٦٥) الاحزاب آية ٢١ .
(٦٦) الفرقان آية ٤٤ .
الاخلاق فى الاسلام : أبو النصر ميشر القوس الحسينى ص ١٢٣ .

والمصدر الأساسى للقيمة الأخلاقية هو القرآن الكريم والسنة النبوية. فقد دعا القرآن فى كثير من آياته الى هــذه القيمة . طهــارة النفس وتهذيبها ، التعاون على الخير ، الدعوة الى الله بالحكمة والموعظــة الحسنة ، الاعتدال والتوسط فى الأمور ، كما دعا الى تهذيب الانســان بالبر والرحمة والإخاء والمودة والتعاون ، والعدل والمغفرة والصــبر والتواضع ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

— طهارة النفس : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها » (٦٧) .

— التعاون على الخير : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب »(٦٨) .

الاستقامة : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه » (٦٩) .

العفة وغض النظر : « قــل للمؤمنــين يغضــوا من أبصــارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، أن الله خبير بما يصنعون »(٧٠) .

التحكم فى الأهواء : « وأما من خاف مقام ربه ونهــى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » (٧١) .

الصدق : يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (٧٢) .

الرقة والتواضع : « وأقصد فى مشيك واغضض من صوتــك ، ان انكر الأصوات لصوت الحمير » (٧٣) .

---

(٦٧) الشمس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .
(٦٨) المائدة آية ٢ .
(٦٩) فصلت : ٦
(٧٠) النور : ٢
(٧١) النازعات : ٤٠ — ٤١
(٧٢) التوبه : ١١٩
(٧٣) لقمان : ١٩

- الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ٠

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ان ربـــك هو أعلـــم بمن ضـــل عن ســـبيله وهو أعلـــم بالمهتدين » (٧٤) ٠

الثبات والصبر : « واصبر وماصبرك الا بالله » (٧٥) ٠

يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكـــم تفلحـــون(٧٦) ٠

القدوة الحسنة : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخـــر »(٧٧) ٠

الاعتدال : « ولا تجعل يدك مغلولة الي عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (٧٨)

- الاعتدال : (التوسط فى الامور)

والذين اذا انفقوا لم يســـرفوا ولـــم يقتروا وكان بين ذلـــك قواما) (٧٩) ٠

- العدل : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليـــه بمثل ما اعتـــدى عليكم (٨٠) ، « ان الله يامر بالعدل والاحسان واتيـــاء ذى القربى(٨١) « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب »(٨٢)٠

---

(٧٤) النمل : ١٢٥ ٠
(٧٥) النحل ١٢٧
(٧٦) آل عمـــران : ٢٠٠ ٠
(٧٧) الاحزاب ٢١
(٧٨) الاســـراء : ٢٩ ٠
(٧٩) الفرقان : ٦٧
(٨٠) البقرة : ١٩٤
(٨١) النحـــل : ٩٠ ٠
(٨٢) البقرة : ١٧٩

– **المغفرة والصبر** : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم »(٨٣)

– **العفـو** : « الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (٨٤) .

– **العمل الصالح** : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحينيه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحســن ممــا كانوا يعملون (٨٥) .

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، انا لا نضيع أجر من احسن عملا (٨٦) .

– **القول الحسن** : « وقولوا لناس حسنا (٨٧)

– **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** : « كنتم خير أمه اخرجــت للناس تامرون بالمعــروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن اهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنــون واكثرهــم الفاسقون (٨٨) .

ومثل هذه الآيات فى الدعوة الى مكارم الاخــلاق كثير وكثير .
والواقع أن قوام هذه القيم هو النظام الروحى الذى نزل به القران وليس المتاثر بالمنافع الدنيوية والمكاسب المالية كما هو الحال فى الحضــارة الغربية التى تضحى بمبادىء الأخلاق فى سبيل نظامها الاقتصــادى او أيه مؤثرات اخرى .

---

(٨٣) الحجج :٣٩
(٨٤) آل عمران ١٣٤
(٨٥) النحــل : ٩٧ .
(٨٦) الكهف : ٣٠
(٨٧) البقرة ٨٣ .
(٨٨) آل عمران : ١١٠

وقد اقر الاسلام حقوق الانسان المهدرة في قرننا العشرين ودعا الى تكريمه : قال تعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا (٨٩) ٠

ولم يكتف الاسلام بدعوة البشر الى هذه القيم السامية وانما نهى الاسلام عن كثير من الموبيقات التى تؤدى الى فساد المجتمعات ٠ نهى عن التنابز بالالقاب ، حيث عد الاسلام هذه الجرائم فسوقا بعد الايمان كما امر المرتكبين لها بالتوبة لان هذه الجـرائم تؤدى الى التفـرقة فى المجتمع مما يؤدى الى انهيار القيم ٠

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قـوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ٠٠٠ »(٩٠) ٠

كما نهى الاسلام عن سوء الظن والتجسس والغيبه :

« يا ايهـا الذين آمنـوا اجتنبـوا كثيرا من الظن ان بعض الظـن اثـم ٠٠٠ »(٩١) ٠

ـ النهى عن التطفيف فى الكيل والميزان ، وكتمان الشهادة » ٠

قال تعالي : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شـــهداء على انفسـكم ٠٠٠ »(٩٢) ٠

تحريم الخمر والميسر (الربا)

« يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »(٩٣) ٠

---

(٨٩) الاسراء : ٧٠
(٩٠) الحجـرات : ١١ ٠
(٩١) الحجرات : ١٢
(٩٢) النسـاء : ١٣٥ ٠
(٩٣) المـائدة : ٩٠ ٠

« يا أيهـا الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضـاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحـون »(٩٤) .

كما ينهى الاسلام من الافساد فى الأرض :

« ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها وادعـوه خوفا وطمعـا ان رحمة الله قريب من المحسنين »(٩٥) .

– الكذب : « واجتنبوا قول الزور »(٩٦) .

– النفاق : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام واذا قيل له : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد »(٩٧) .

– البخل : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون »(٩٨) .

– الاسراف : « ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كـانوا اخـوان الشياطين »(٩٩) .

– الزنا : « ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا »(١٠٠) .

من هذه الآيات وغيرها يتضح لنا أن الأخلاق الاسلامية انما تدعو الى اداب السلوك وما تتسم به هذه الآداب من تواضع للنفس وحب للآخرين . فالاصلاح النفسى هو الدعامة الأولى للأخـلاق ، والهـدف من الحيـاة الانسانية هو الخير أو غرس بذور الخير فى هذا العالم ، ولا يكون ذلك

---

(٩٤) آل عمـران : ١٣٠ .
(٩٥) الأعـراف : ١٥٦ .
(٩٦) الحـج : ٣٠ .
(٩٧) البقـرة : ٢٠٤،٢٠٥،٢٠٦ .
(٩٨) الحشـر : ٩ .
(٩٩) الاسـراء : ٢٦ .
(١٠٠) الاسـراء : ٣٢ .

الا حينما يمتزج النظر بالعمل أى حينما تمتزج الشعائر الدينية بالعمل الصالح ٠

والعمل الصالح في الاسلام هو العمل الذى يحقق المصلحة الخاصة والعامة ، وفى حالة التعارض بينهما فانه ينادى بتقديم المصلحة العامة على الخاصة ٠

فأساس التشريع الاسلامى هو المصلحة العامة ، وقد عبر عن ذلك الأصوليون بقولهم (حيث وجدت المصلحة فثمة شرع الله) ٠

وخلاصة القول انه اصبحت من مسئولية العالم الاسلامى المعاصر ان يجد طريقا اقتصاديا جديدا يحققه التوازن والتوافق بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة ، بعيدا عن كل تطرف أو مغالاه ٠ وذلك عملا بالحديث الشريف : لا تمنعوا المسلمين حقوقهم فتكفروهم(١٠١) ٠

وقد أوضح الدكتور مدكور (١٠٢) موقف الاسلام من القيم الانسانية فى كتابه « فى الفكر الاسلامى » فقال ان أصول الاسلام ومبادئه صالحة لكل زمان ومكان ، فقد اقر الاسلام حقوق الانسان وسبق بذلك القرن الثامن عشر الذى يعدونه قرن حقوق الانسان ، فقد أيدها الاسلام ومكن لها وجعل وجعل منها دينا ودنيا ، واقامها على دعائم اخلاقية وروحية تسمو كثير على ما جاء به ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ ، وحقوق الانسان التى تفاخر الحضارة الغربية بالكشف عنها ، قد أقرها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ، وهي حرية الاعتقاد وحرية الرأى والتعبير وحرية العمل والتعليم وحرية التملك والتصرف ٠ وفى آيات الكتاب البينات شواهد ناطقة بذلك ٠ وقد حرص الاسلام على حماية النفس البشرية

---

(١٠١) د٠ نزلى اسماعيل حسين : فلسفة القيم : العالم الاسلامى المعاصر : ص ٤٢ ٠

(١٠٢) د٠ ابراهيم مدكور : فى الفكر الاسلامى : القيم الانسانية فى الاسلام ص ١٦٠ ، ١٧٦ ٠

وتقديسها مع انها اليوم مهدرة ، كما قرر الدين حقوق المراة وبشـــــر بالتسامح الدينى ودعا الى المعاملة الكريمة للمؤمنين من اهل الكتاب ، وانفتح على الأمم ذات الحضارات القديمة – كما تشهد حركة الترجمة فى العصر العباسى ، ونفر الناس من التمييز العنصرى ... وسبق بذلك كل التشريعات والمواثيق الحديثة ، وحقق آمال البشرية وتمنياتها فى عصرنا الحاضر وما بعده ...

والاسلام دين وحضارة ، تعاليم وسلوك عقيدة وفلسفة ، واساس حضارته الأخوة الاسلامية فالناس فى شريعة الاسلام سواسية كاسنان المشط ، فلا فرق بين عربى وعجمي الا بالتقوى : وقال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٠٣) .

ان عصر التكنولوجيا الذى تعيشه الانسانية الآن لا يعتد الا بالجهاز والآلة وربما ضحى فى سبيلهـا بحـرية الانسـان وكرامته ... والقيم الانسانية وهى تراث الماضى وصنع الأجيال المتعاقبة لم تسلم من عدوان الزمان عليها ، ولكن الاسلام يخاطب الانسان ويوجه اليه الرسالة ، وقد دعا الاسلام الي حرية الراى والفكر ، وحكم المسـلمون عقولهم فيمـا صادفوا من شئون الدين والدنيا مما لم يرد فيه نص من كتاب أو سـنه وكان للاجتهاد بالرأى انصار ومؤيدون يشرفون على هدية ويفنون فى ضوئه ... ومن الراى « الاستحسان والاستصلاح » أو المصالح المرسلة التى تقضى بأن توازن الأمور بميزان المصلحة العامة ... وتتمثل تلك الحرية فى المدارس الفلسفية والعلمية ، فاخذ العلماء – علماء الاسلام بالملاحظة والتجربة ، وانشاوا المعامل ليجروا فيها مختلف التجارب ، واقامـوا المراصد ليتتبعوا سير الكواكب ويقفوا على حركات النجـوم ، وعلى

---

(١٠٣) الحج آية : ٣٩ .

الفصل الثالث

القيم الأخلاقية عند بعض مفـكرى الاسـلام



ان نظـرة سـريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العلم ـ التي كتبها علماء غربيون ـ كافية لنلحظ فيها فراغا هائلا وعميقا ، نشأ عن ابتعادها عن علم الأخلاق القرآني .

والواقع ان هذه المؤلفات تذكر لنا المبادىء الأخلاقية كما ارتأتها الفلسفات الاغريقية والأديان اليهودية والمسيحية ثم تنتقـل بعد ذلك مباشرة الى الاتجاهات الحديثة في الأخلاق في الاسلام ، هذا علي الرغم من ان الاضافة القرآنية ذات قيمة لاتقدر .

فالتعاليم الأخلاقية الاسلامية القليلة الموجودة لدنيا مـا زالت مرتبطة بالنماذج الأفلاطونية أو الأرسطية . أما الأخلاق القرآنية كشيء مستقل لم تكن الموضوع الرئيسى للدراسة لدى المسلمين .

ويعد كتاب مسكويه « تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » اكمل دراسة علمية فى مجال الأخلاق ، والبعض يعده المرجع الوحيد للأخلاق عند الغرب برغم ان اكثره منقول عن ارسطو فى الأخـلاق النيقوماخية بوجه خاص .(*) .

(*) اشهر من الف فى الأخلاق بالعربية من القدماء احمد بـن مسكويه ٣٢٠ - ٤٢١هـ واشهر مؤلفاته كتاب « تهذيب الأخلاق » . فماذا قال الدارسون المحدثون عن التهذيب ومؤلفه ؟

قال الدكتور محمد يوسف موسى : « ... فيلسوفنا لم يجئنا فى الفضيلة والسعادة بجديد لم يأخذه عن فلاسفة الإغريق ، وبخاصة كما يصرح دائما . افلاطون وارسطو . (فلسـفة الأخـلاص فى الاسـلام ص ١١٦) .

- وقال الدكتور زكي مبارك ان مسكويه « ينقل عن الفلسـفة اليونانية بطريقة صريحة لا لف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفة اليونان مع الحرص على موافقة الشريعة الاسلامية . (الأخـلاق عند الغزالى ص ٥٨) .

ويعد الغزالى اكبر مفكرى الاسلام اهتماما بالأخلاق التي تقوم على المبادىء الحقيقية ، وفى كتابيه : ميزان العمل ، احياء علوم الدين مصداقا لما نقول .

وقد اتفق جمهرة مفكرى العرب على اعتبار الرذائل أمراضا نفسية تتطلب العلاج ، ومن هنا بدأ وجه الشبه بين علم الاخلاق وعلم الطب لأنه يعالج الجانب الروحى فى طبائع البشر ، ومن اجل هذا كان علم الأخلاق صناعة تستهدف علاج الأمراض وحفظ الصحة ، وغايته تحقيق السعادة .

وهكذا بدا علم الأخلاق فرعا من الحكمة العملية يتناول بالدراسة الفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها ، والرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها .

ومن مفكرى العرب من ذهب الى أن الخلق مغروز فى طبائع البشر ومنهم من رأى أن من الأخلاق ما يكون فطريا طبيعيا ثابتا لايتغير ، وبالتالى تكون وظيفة الأخلاق وصف السلوك وليس هدايته وتقويمه .

ومنها ما يجري اكتسابها بالتربية والتعليم وبالتالى يقبل التغير ويتيسر تهذيب الأخلاق واصلاح النفوس .

ومن هنا جاء الحديث الشريف : انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ومفكروا الاسلام على اتفاق فى اقامة المبادىء الخلقية على اساس من الايمان بالله على نحو ماورد في القران الكريم ، ليس لله مكان فى الأخلاق عند ارسطو . اكبر فلاسفة الأخلاق قديما – لأن الله عنده هو المفهوم الأعلى للوجود أو هو جنس فوق الاجناس . بل انه يشير فى كتابه « الأخلاق الى نيقوماخوس » الى أن الآلهة مصرحا بانهم يعيشون سعداء فى غمرة من السرور ... وعلى عكسه كان « كانط » – امام

الفلسفة الخلقية الحديثة - اقام مبدأ الواجب على ثلاث مسلمات اخلاقية هى الاعتقاد فى حرية الارادة ، خلود النفس ووجود الله .

أما فى العصور الوسطى فقد حرصوا على الاعتقاد فى أن الاخلاق لاتستقيم قط بغير الايمان بالله وصفاته والاعتقاد فى خلود الروح (١) .

هذا وقد بلغت فلسفة الاخلاق فى الاسلام كما لها عند مسكويه من ناحية ، والغزالى وصوفية الاسلام من ناحية اخرى لهذا سنقف عند هذه القمم الاخلاقية .

١ - مسكويه (*)

وضع مسكويه كتاب « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » لايضاح الطريق الى السلوك المستقيم بعد دراسة علمية تجعل التزام هذا السلوك سهلا ميسورا لا كلفة فيه ولا مشقة . وقسم الكتاب الى سبع مقـالات تحدث فيها عن النفس وقواها ، واوضح أن الفضائل اوساط بين اطراف متباعدة ، والخير عنده هو ما به يبلغ الكائن المريد كمال وجوده ، وهو ما يقصده الكل بالشوق .

---

(١) د. توفيق الطويل : فلسفة الاخلاق ص ١٥٩ .

(*) هو احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، ابو علي . بحث مؤرخ + ٤٢١هـ/١٠٣٠م من اشهر مؤلفاته تهـذيب الاخلاق وتطهير الاعراق . وله مؤلفات فى التاريخ والادب منها تجارب الامم وتعقـب الهمم ، وطهارة النفس ، كتاب اداب العرب والفرس ، الفوز الاصغر فى اصول الديانات ، الفوز الاكبر وفوز النجاة فى الاخلاق ، ايضا ترتيب السعادات فى الاخلاق ، وغير ذلك مما لم نستطيع الوصول اليه .

(تهذيب الاخلاق لمسكويه : ص ٣) .

وقد عرفه استاذنا الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه : فلسفة الاخلاق فى الاسلام « بمسكوية » وقال عنه انه من فلاسفة الاسلام الذين جمعوا بين ثقافة الاغريق وثقافة الاسلام . كما ذكر عنه « أنه رجل يؤثر الخير على الشر فى الافعال والحق على الباطـل فى الاعتقـادات ، والصدق على الكذب فى الاقوال ... الى آخر ما تدعـو اليه مجـاهدة النفس من افعال » (فلسفة الاخلاق فى الاسلام ص ٨٣ : ٨٤ .

والناس عنده ثلاث طوائف : قلة خيرة بفطرتها ، وكثر شـريرة بطبيعتها لا يعيرون الى الخير ابدا ، وطائفـة ينتقلون من الخير الى الشر الى الخير وفقا لأساليب التربية ومخالفة الأشـــرار أو مصاحبـــة الأخيار .

كما تحدث فيه عن السعادة ورأى ان لكل انسان خيره الخـــاص أو سعادته الخاصة التى تختلف باختلاف قاصديها ، ولكن هناك خـير عام مطلق هو مقصد الأخيار جميعا ، هو عين الموجود الأعظم . فالسعادة الروحية لا السعادة البدنية ومتى انشغل الانسان بعالم الروح بلغ مرتبه الملائكة عن طريق العشق الالهى وحقق السعادة القصوى .

ويرى مسكويه ان الغرض الأول من الاخلاق ـ كما يراه فى المقـالة الأولى من كتابه التهذيب ـ هو تهذيب النفس قال تعالـــى : « ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من ذكاها » .

والطريق لتحصيل الخلق الفاضل الذى تنشا عنه الأفعال الجميلة هو كما يقول مسكويه ـ أن نعرف أولا نفوسنا : ما هي وما قواها وملكاتها ، وغاياتها التى فيها كمالها(٢) .

ويعرف مسكويه النفس بأنها ليست جسما ولا جزءا من جسم ولا عرضا له ، لأنها لا تتغير ولا تستحيل كما تتغير وتستحيل الأجسام .

كما ان النفس طباعها وجوهرها من غير طباع الجسم والبدن فهى اكرم جوهرا وافضل طباعا من كل ما فى هذا العالم من الأمور الجسمانية وأيضا فان تشوقها الى ما ليس من طباع البدن وحرصها على معـرفة حقائق الأمور الالهية وميلها الى الأمور التى هى افضل من الأمـــور الجسمية واثيارها لها يدلنا علي أنها من جوهر غير جوهر الجسم (٣)

---

(٢) مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ١٤

(٣) نفس المرجع ص ١٥ .

اما شوقها الى افعالها الخاصة بها ، اعنى العلوم والمعارف ، مع هربها من افعال الجسم الخاصة به فهو فضيلتها (٤) .

وللنفس عند مسكويه - كما كان عند افلاطون - ثلاث قوى واحدة للفكر والنظر فى حقائق الأمور ، أخرى بها ما يتصل بالغضب والشجاعة من الأفعال ، وثالثة هى القوة الشهوية يكون بها اللذات الحسية وما يتصل بها . وهذه القوى الثلاث متعارضة متباينة . وعوامل القوة والضعف ترجع الى المزاج احيانا والى العادة والتاديب احيانا اخرى .

ولكن غاية الانسان وفضيلته تتحقق فى اذعان قوى الجسم للقوة العاقلة أى أن تكون غايته التى تليق به كانسان والتى هى سعادته هى فى صدور الأفعال الانسانية عنه حسب تمييزه ورويته ، وفى طلب الفضيلة الخاصة به ، أعنى العلوم والمعارف مع عدم الاذعان لرغبات الجسم(٥)

للنفس اذن ثلاث قوى ، كل قوة منها قد يسوء أو يحسن استعمالها تبعا لبواعث وعوامل مختلفة ، فقد تجنح نحو الافراط وقد تهبط نحو التفريط فيكون ذلك شرا ورذيلة . وقد تكون معتدلة وسطا لا الى افراط أو تفريط فيكون ذلك خيرا وفضيلة .

ويعرض مسكويه لاجناس الفضائل فيرى أنها أربع هى العفة ، الشجاعة ، العدالة ، ثم باعتدال هذه الفضائل وانسجامها فيما بينها تكون فضيلة أخرى هى كمال الفضائل الثلاث وهي الحكمة ، ويندرج تحت هذه الفضائل فضائل أخرى :

العفة : مثلا (تتدرج تحتها القناعة ، الدماثة ، الانتظام حسن الهدى ، المسالمة ، الورع) .

---

(٤) نفس المرجع ص ١٨ .
(٥) التهذيب ص ١٩ .

الشجاعة : (النجدة ، الهمة ، الثبات ، الحلم ، السكون ، الشهامة) .

العدالة (الصداقة ، الألفة ، صلة الرحم ، المكافأة ، التودد ، العبادة .

الحكمة : البله ـ الذكاء ، التعقل ، سرعة الفهم ، التعلم) (٦) .

وهذه الفضائل أوساط بين أطراف هى الرذائل التى تكتنفها ولكن الوسط هنا ليس الوسط الحسابى لأن هذا ـ كما يرى مسكويه ـ هدف صعب اصابته ، كما أن التمسك به دائما أصعب ، انه وسط يختلف باختلاف الأفراد ويعرف بالاضافة الى الطرفين اللذين يحيطان به .

وبعد أن عرضنا للنفس والفضيلة لابد لنا ـ ونحن بصدد الأخلاق عند مسكويه ـ أن نجيب على هذه التساؤلات :

ما هو الخير ، ما هى السعادة عند مسكويه .

وما هى القيمة الأخلاقية التي تسعى الأخلاق الى تحقيقها أو ما هى الغاية النهائية من مذهب مسكويه الأخلاقى ؟ .

ما هو الخير وما هو الواجب عند مسكويه ؟

يقول مسكويه أن الخير هو كمال الأفعال الانسانية ، وكل شىء له فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره وهذا كماله .

ومن الواجب الذى لاشك فيه أن يحرص على الخيرات التى هي كما لنا والتى من أجلها خلقنا . والخيرات التى تسعى النفس اليها منها ما هى شريفة ومنها ما هى ممدوحة ، ومنها ما هى بالقوة وما هى بالفعل ويشبه مسكويه الانسان الذى تصدر أفعاله الانسانية ناقصة غير تامة بالسيف أو الآلة التى متى قصرت ونقصت افعالها الخاصة بها حطت من مراتبها واستعملت استعمال مادونها (٧) .

---

(٦) التهذيب ص ٣٦ : ٤٠
(٧) التهذيب ص ٣٢

فافضل الناس اذن من كان اقدر على افعاله الخاصة به واشـد تمسكا بشرائط جوهره الذى تميز به عن سائر الموجودات .

اما عن واجب الانسان فهو أن يحرص على الخيرات التى هى كمال النفس وهو حين يقصر فى افعاله فتصدر عن عدم رويه ينحط من مرتبه الانسانية الى مرتبة الشهوة التى يشارك فيها البهيمة أو مرتبـة الأمـور الجسمية التى تشغله عما عرض له من تزكية نفسه .

وحين تصدر افعاله عن كمال نفسه ، فانه يتحقق له السعادة التى تنتهى به الى الملك الرفيع ، السرور الحقيقى ، تبلغه الى رب العالمين فى النعيم المقيم ، واللذات التى لم ترها عين ، ولاسمعتها اذن ولاخطرت على قلب بشر (٨) .

اما عن الغاية من الاخلاق عند مسكويه فهى تحقيق السعادة للفرد والمجتمع وقد أوضح مسكويه الفرق بين الخير والسعادة - فى المقالة الثالثة من كتابه التهذيب - فرأى ان السعادة هى تمام الخيرات وغايتها .

يقول مسكويه : « ان السعادة هى افضل الخيرات . ولكنا نحتاج فى هذا التمام الذى هو الغاية القصوى الى سعادة أخرى وهى التى فى البدن والتي خارج البدن (٩) .

السعادة هى الخير التام فى نفسه بحيث لايحتاج من بلغه الى شيء آخر وراءه ، ولكن لايوصل اليه الا بسعادة جزئية نسبية بعضها مرده للنفس وبعضها لأمور خارجة أخرى .

ويذكر مسكويه رأى أرسطو فى السعادة التى يشترط لها لتكـون تامة خيرات فى البدن كالصحة ولطف الحواس وجودة الرأى وسـلامة

---

(٨) التهذيب ص ٦ : ٦٣ ، ٨٨ .
(٩) التهذيب ص ٩٠ ، ٩٥ .

الفكر ، وأخرى خارجة عنه كالثروة والجاه والنجاح والتوفيق فى الامور فمن كمل له هذا كله - بعد ان كان فاضلا - كان سعيدا تمام السعادة -

اما عن راى مسكويه فى السعادة فهو لا يراها فى اللذات الحسية . لأن هؤلاء فى رايه هم الرعاع والجمهور من العامة ، وطــلاب التجارة والكسب حتى فى العبادات .

فاذا كانت السعادة ليست فى هذه المتع واللذات ، فانها - فى رايه - تكون فى أمر واحد هو الحكمة . « للحكمة - كما يقول جزآن : نظرى وعملى . فبالنظرى يمكن تحصيل الآراء الصحيحة ، وبالعملى يمكــن تحصيل الهيئة الفاضلة التى تصدر عنها الأفعال الجميلة ، وبهذين الأمرين بعث الله الأنبياء صلوات الله عليهم ليحملوا الناس عليها . ذلك أن الشريعة وهى من عند الله تعالى لا تأمر الا بالخير والا بالاشياء التى تفعل السعادة ... وبالجملة تامر بجميع الفضائل وتنهى عن جميع الرذائل (١٠) .

واذا كانت السعادة ثمرة من ثمار الواجب ، فان ســعادة الفــرد لاتتم الا بسعادة الآخرين . يقول مسكويه . « لما كانت هذه الخيــرات الانسانية وملكاتها التى فى النفس كثيرة ، ولم يكن فى طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها ، وجب ان يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم ، ولذلك وجب ان تكون اشخاص الناس كثيرة ، وأن يجتمعوا فى زمان واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة . ولأجل ذلك وجب علي الناس أن يحب بعضهم بعضا لأن كل واحد يرى كما له عند الآخر . ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته ، فيكون ذا كل واحد بمنزلة عضو من اعضاء البدن وقوام الانسان بتمام اعضاء بدنه . ومعنى ذلك أن مسكويه لايرى

---

(١٠) د. محمد يوسف موسى : فلسفة الأخلاق فى الاســلام ص ٩٨ : ١٠٠ .

السعادة فى الانانيه الفردية ولكنه يراها فى الترابـــط والمحبـــة بين الناس (١١) ٠

فالمحبة بين الناس هى قوام الفضائل واساس الواجبات ، واجتماع الناس بعضهم ببعض ضرورة طبيعية ٠ ويؤكد مسكويه فى كتاب « الفوز الأصغر » أن من ينزع الى التزهد يجور على غيره ، لأنه يطلب معاونة الناس ثم لا يعاونهم وهذا ظلم ٠

ولا يبلغ الانسان كما له إلا بالتضامن والتعاون مع أبناء جنســه ومن اجل هذا استهدف علم الاخلاق الوقوف على ما ينبغى ان تكـون عليه أخلاق الانسان في المجتمع ٠

ولا شك ان سعادة الجميع لن تتحقق الا باقامة العدل فى المجتمع ٠

ويرى مسكويه أن الشريعة الاسلامية تأمر بالعـــدالة الكاملـــة ، وعن طريق اقتناء هذه الفضيلة تجاب المطالب وتحل الصاعب(١٢) ٠

وصلاح اى امر من الأمور — فيما يرى مسكويه — معلق بالمحبة ٠ وعن طريق اقتناء هذه الفضيلة وتحل المطالب وتحـل المصاعب (١٣) ٠

فمذهب مسكويه الأخلاقى — بناء على هذا — مذهب اجتماعى ان صح التعبير ٠ فقد دعا لأن يعيش المرء فى اجتماع لا متفردا وحده ولابد من تعاون كثيرين — كما ذكرنا — على تحصيل الخيرات ٠ وهو يـــرى مصداقا لذلك أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بدرجات ، واجتماع كل أسبوع لأهل المحلة الواحدة او البلد الواحد واجب شرعا ، واجتماع مرتين لأهل المدينة وما يتصل بها من القرى شعيرة من الشعائر الدينية ، واجتماع المسلمين جميعا من جميع اقطار الأرض فى البلاد المقدسة ركن من اركان الاسلام (١٤) ٠

---

(١١) د٠ نازلى اسماعيل : فلسفة القيم ص ١٥٤ ٠
(١٢) التهذيب ص ١٤٣ ٠
(١٣) ص ١٤٤ ، ١٥٠ ٠
(١٤) التهذيب : ص ١٤٧ : ١٥٠ ٠

ونستطيع أن نقول أن اخلاق مسكويه تجمع بين العقل والارادة أو بين العلم والعمل ، فهى ليست أخلاق نظرية كاخلاق اليونان فقط تكتفى بالتعريف الكلى للفضيلة ، ولكنها تسعى الى العلم التام بكافة الموجودات وبخالق الكون ، ليتسنى للعقل معرفة مراتب الأشياء .

واذا كان الانسان فى نظر افلاطون يدرك الخير فى لمحة عقلية فان العلم التام عند مسكويه يؤدى الى الايمان والاتصال الدائم بالله .

وبهذا يمكن القول أن أخلاق مسكويه تختلف عن أخلاق أفلاطون وارسطو هذا على الرغم من تأثره الشديد بهما ، فهو قد أخـــذ عن افلاطون (آراؤه فى النفس) أو من ارســطو (آراؤه في الفضــيلة والسعادة ولكن نزعته كانت أقرب الى الاختيار من مختلـف المذاهــب والتوفيق بينها ليجعل منها فى النهاية وحدة متماسكة ونظاما قائما بنفسه فى الأخلاق ، وحدة تتفق مع ما يقره الدين والشريعة .

والمرء لا يحتاج للشريعة فى وقت دون آخر ، انه يحتاج لها فى كل وقت وفى كل حالاته حتى تهديه وتقومه الى الحكم البالغة ليتولى تدبير نفسه الي آخر عمره (١٥) .

وبهذا جعل مسكويه للدين أثره الكبير فى تقويم الأخلاق والوصول الى السعادة وفى هذا اختلاف واضح بينه وبين افلاطون وأرسطو .

وهكذا بالتربية والشريعة والعلم والايمان والأخلاق يتحقق السلوك الكامل للانسان فى هذا العالم ، فيسعد فى دنياه وينجو فى آخرته .

هكذا نظر مسكويه الى الأخلاق نظرة ثاقبة عميقة تنفذ الى اعماق الواقع والحقيقة ورأى أن الأخلاق مزيج بين ما جبل عليه الانســان وما يكتسبه عن طريق التربية ، لأن الانسان ليس خير محض ولا شر محض لأنه لو كان كذلك لما كنا بحاجة الى الشرائع والأخلاق ، الفطرة

---

(١٥) نفس المرجع : ص ١٥٧ .

وحدها ليست كافية بل لابد من تهذيب هذه الفطرة وهذا أوضحه مسكويه فى كتابه الذى عرضنا له ،

وهكذا وضع مسكويه مذهباً فى الأخلاق لا يزال له خطره فى الشرق حتى يومنا الحاضر - كما يقول المستشرق الهولندى دى بـــور ، وان كان قد تأثر فيه بتفكير سابقيه ، وخاصة افلاطون وارسطو وجالينوس وانه بعث فيما اقتبسه من مذاهبهم روحا اسلامية لاتخفى ونزع فى الكثير من نواحى تفكيره نزعة علمية واقعية موضوعية ٠

ومحاولته وضع مذهب اخلاقى فلسفى خليقة بالتقدير لانه لم يتقيد فى هذه المحاولة الجادة بتفريعات اهل الفقة ولا نزعات الصوفية الزاهدين ، الى جانب أنه أبدى فى عرضه سدادا فى التفكير وسعة فى الثقافة ٠

الغــزالى :

يعد الغزالى (*) اكبر مفكرى الاسلام احتماما بالاخلاق التى تقوم على المبادىء الاسلامية الحقيقية ، وكتابه « احياء علوم الدين » خاصة أهم كتبه فى الاخلاق ، لهذا سيكون اعتمادنا الرئيسى على هذا الكتاب فى عرض مذهبه الاخلاقى ، وعلى كتاب « معارج القــدس فى مدارج معرفة النفس » فى عرض نظرية النفس عنده بصفة خاصة ٠

هذا بالاضافة الى ما ورد من مسائل تتصل بالاخلاق فى كتابيـــه « المنقذ من الضلال ، كيمياء السعادة ٠

وسنرى فى كتابه « الاحياء » أن نزعه التصوف هى الغالبة على اخلاقه ٠ وقد علم الغزالى « أن الصوفية هــم الســالكون لطريـــق الله خاصة ، وأن سيرتهم احسن السير ، وطريقتهم اقرب الطرق(١٦) ٠

(*) توفى عام٥٠٥ هـ ، ١١١١م ٠

(١٦) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٢٦ ٠

النفـــس :

يقول الغزالى فى كتلبه « كيميـاء السعادة » فى فصل بعنــوان : معــرفة النفس « اعلم أن مفتــاح معــرفة الله تعــالى هو معرفة النفس كما قال تعــالى : « **سنريهم آياتنــا فى الآفــاق وفى أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحــق** » ، وقال ﷺ : « من عرف نفسه فقد عــرف ربه » (١٧) ٠

والنفس التى يعنيها الغــزالى هى النفس الانســانية التى بها حقيقة الانســان ، وقد أورد لها معــانى مترادفة فى مستهل كتــابه « معــارج القدس فى مدارج معــرفة النفس » فقال انها أربعــة :

النفس والقلب والروح والعقــل(*) ٠

ويحــاول الغــزالي - فى هذا الكتاب - أن يثبت وجود النفس فيرى ان الأجســام كلها تشترك فى صفة الجسمية ، ولكن هــذه الأجسام تتمايز فيما بينها من جهة أن بعضها متحرك والآخــر ساكن ، بعضها يدرك والبعض لا يدرك وهــذا يدل على أن الأجســام تتمايز من جهــة الادراك والحــركة بامــر لا يرجع الى الجسم بل لشىء آخر هو ما نطلق عليــه النفس(١٨) ٠

فالنفس اذن ليست جسما ولا بعض جسم ولا جــزءا منه ، انهــا جوهر منزه عن المــادة والصور الجسمانية(١٩) ٠

أو بعبــارة أخرى هى : « الكمال الأول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يفعــل الأفاعيل بالاختيار العقــلى والاستنباط بالرأى ومن جهــة ما يدرك الأمــور الكلية(٢٠) ٠

---

(١٧) المنقذ من الضلال ومعه كيمياء السعادة : ص ١٠٨ ٠

(*) أوضح هذه المعــانى للنفس فى الجزء الثالث من كتاب الاحيــاء ص ٤ ٠

(١٨) الغزالى : معــارج القدس ص ١٩ ٠

(١٩) نفس المرجــع ص ٢٣ ٠

(٢٠) ص ٢١ ٠

والنفس جوهر وذلك ثابت من جهة الشرع والعقل .

فالنفس هي التى تنعم بعد البدن ، وتعذب ، لأن الألم وإن حل بالبدن فلأجل النفس ، ثم للنفس عذاب آخر يخصه وذلك كالخزى والحسرة وألم الفراق(٢١) .

ويرى الغزالى أن النفس صالحة حسب فطرتها الأولى للخير والشر والفضل فى توجيهها للخير التربية الطيبة .

وقد أكد الامام الغزالى الصلة بين النفس والأخلاق ، ذلك أن الاهتمام بالانسان يعنى الاهتمام بالنفس الانسانية . يقول الامام الغزالي : «ان النفس هى الانسان على الحقيقة ، فهو بنفسه لابيدنه».

« النفس هى ذلك الشىء الذى من شأنه التذكر والحفظ والتفكير والتمييز والرؤية ، وهى تقبل جميع المعلومات ، وهذه النفس تسمى عند كل قوم باسم خاص ، فهى عند المتصوفة تسمى بالقلب ، وعند الحكماء تسمى بالنفس الناطقة ، وعند الأشاعرة والمتكلمين بالروح أو النفس المطمئنة .

فالروح والقلب والنفس كلها أسماء لشىء واحد هو النفس الانسانية التى هى محل المعقولات .

فقلب الطفل كما يقول : جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل الى كل ما يمال به ، فان عوّد الخير وعلمه ونشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وأهلك(٢٢) .

---

(٢١) ص ٢٣ .

(٢٢) محمد يوسف موسي : فلسفة الأخلاق فى الاسلام ص ١٣٢ .
معارج القدس : ص ١٩ – ٢٣ .

وبعد ان اثبت الغزالى ان النفس ليست منطبعة فى البدن وليست جزءا منه ، يسعى الى بيان انها خالدة وانها لا تفنى بفناء البدن

ويؤكد الغزالى بقاء النفس بالأدلة الشرعية فيقول انها كثيرة وذلك مثل قوله تعالى : (**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** » ٠ (آل عمران : ١٦٩، ١٧٠) (٢٣)

ولكن نود ان نقول — مع استاذنا الدكتور فيصل عون — ان النفس عند الغزالى رغم انها جوهر قائم مستقل عن البدن الا انها على صلة قوية به فهى تؤثر فيه وتتاثر به ، انها تدرك الكلي بواسطة الحسى ، والحسى من جهة اخرى قد يصرفها عن فعلها الحقيقى اذا عرض البدن الحامل لها أو شغل بغير المعقول(٢٤) ٠

ولكن النفس عند مفارقتها للبدن لا تفنى بفنائه لأن الفناء والعدم والفساد والهلاك لا يجوز عليها كما يقول الغزالى(٢٥) ٠ لأنها من جوهر بسيط ٠

الخلــق :

عرض الغزالى لمسألة الخلق فى كتابه « الاحياء » ، وان كان قد عالجها بعناية كبيرة فى كثير من مؤلفاته ٠

بحث فى الخلـق : ما هو ، وبم يكون حسنا ، يقبل التغير ، وكيف ، وبم يعالج الخلق السيىء أو الرذيلة ؟(*) ٠

وفى بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق يستشهد الغزالى بالرسول الكريم ويرى انه القدوة ٠ يقول الغزالى : « الخلق الحسن صفة

---

(٢٣) الغزالى : معارج القدس ص ١١٧ ٠
(٢٤) د٠ فيصل بدير عون : الفلسفة الاسلامية فى المشرق ، ط ١٩٨٣ ص ٤٣٨ ٠
(٢٥) الغزالى : معارج القدس ص ١٢٠ ٠
(*) عالج الغزالى مسالة الخلق وما يتصل بها فى كتابه الاحياء ، الجزء الثالث : كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة امراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات : ص ٤٧ — ٨٠ ٠

سيد المرسلين وافضل أعمال الصديقين » ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : « وانك لعلي خلق عظيم » ٠

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله خلقه القرآن وسأل رجل رسول الله عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى : « خذ العفو وامر بالمعروف واعرض عن الجاهلين » ، ثم قال : « هو ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » ، وجاء رجل الى رسول الله فقال يا رسول الله ما الدين ؟ قال : « حسن الخلق »(٢٦) ٠

كل هذا وغيره من احاديث تدل على فضيلة الخلق الحسن وبيان لحقيقة الخلق وكيف يكون حسنا ٠

اما عن الخلق فهو عنده « هيئة فى النفس راسخة عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا(٢٧) ٠

ويرى الغزالى أن هناك أربعة امور : أحدها : فعل الجميل والقبيح ٠ والثانى : القدرة عليهما ، الثالث : المعرفة بهما ، والرابع : هيئة النفس تميل بها الى احد الجانبين ويتيسر عليها احد الأمرين اما الحسن واما القبيح ٠

والخلق هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة – وهو المعنى الرابع ٠

وحسن الخلق لا يتم الا اذا استوت الأركان الاربعة واعتدلت وتناسبت ، وهى قوة العلم ، وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة

---

(٢٦) الغزالى : احياء علوم الدين : ج ٣ ص ٤٨،٤٧ ٠
(٢٧) نفس المرجع : ج ٣ ص ٥٢،٥١ ٠

العدل بين هذه القوى الثلاث(٢٨) .

قبول الأخلاق للتغير بطريق الرياضة :

يرى الغزالى أن الأخلاق قابلة للتغير وذلك عن طريق مجاهدة النفس ورياضتها .

يقول الغزالى : « اعلم ان بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق ، فلم تسمح نفسه بان يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم ان الاخلاق لا يتصور تغيرها ، فان الطباع لا تتغير ، فيرد الغزالى على ذلك بقوله :

لو كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله : « حسنوا أخلاقكم »(٢٩) .

ويرى الغزالي أن حسن الخلق لا يكون الا بقمع نزعات النفس وشهواتها ، وهذا محال رجوعه الى أصل الطبع والمزاج .

ويرى الغزالى أن حسن الخلق يرجع الى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها مطيعة للعقل والشرع ايضا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

١ - أحدهما بجود الهى وكمال فطرى بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل وحسن الخلق ، ومن هؤلاء الصفوة والأنبياء كعيسى ابن مريم ، يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وسائر الأنبياء .

٢ - الوجه الثانى : اكتساب الأخلاق بالمجاهدة والرياضة (٣٠) .

فإذا كانت الأخلاق قابلة للتغير والاكتساب ، فما الطريق الى تهذيب الأخلاق ، والانتقال من الرذيلة الى الفضيلة ؟

---

(٢٨) الاحياء : جـ ٣ ص ٥٢ .
(٢٩) نفس المرجع : ص ٥٤ .
(٣٠) نفس المرجع : ص ٥٦ .

يرى الغزالى ان النفس فى هذا كالبدن ، فكما أن البدن ان كان صحيحا كان واجب الطبيب أن يعنى بحفظ الصحة عليه ، وان كان مريضا أصبح واجبه رد الصحة التى هى الأصل اليه ، فاذا كان هذا أمر البدن ، فكذلك تكون النفس ، ان علقت بها الرذيلة وجب علاجها بضدها .

فعلاج النفس بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة لها ، فعلاج مرض الجهل بالتعلم ، مرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ... الخ . ويجب فى هذا السبيل احتمال الألم حتى يزول المرض وتعود الصحة(٣١) .

وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز ، فقال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

والفضيلة عند الغزالى هى اعتدال قوى النفس - حتى تصدر - الأخلاق الجميلة كلها ، وعدم جنوحها الى الافراط أو التفريط .

واذا تم للنفس هذا الكمال والاعتدال قربت من الله عز وجل وفى ذلك تحقيق السعادة .

وامهات محاسن الأخلاق هى الفضائل الأربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل أو العدالة .

فالحكمة : فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية والعفة فضيلة القوة الشهوية ، والعدالة وهذه هى قوى النفس الثلاثة ، والفضيلة الرابعة بانسجام هذه القوى بعضها مع بعض حتى لا تبغى واحدة منها على الأخرى(٣٢) .

---

(٣١) الاحياء : ج ٤ ص ٥٩ .
(٣٢) الاحياء ج ٣ ص ٥٣ ، معارج القدس فى مدارج معرفة النفس : ص ٨٥ .

ويرى الغزالى أن الاعتدال لم يبلغ كماله فى هـذه الأربع الا فى رسول الله ، والناس بعدم متفاوتون فى القرب والبعد منه .
فينبغى أن نقتضى به ونتقرب اليه ، فان رسـول الله لم يبعث الا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال .

وأمهات الفضائل يندرج تحتها فضائل فرعيه . فمن الحكمة يحصل حسن التدبير وجودة الذهن ، ومن الشجاعة يكون الكرم والشهامة وكسر النفس والاحتمال وكظم الغيظ والحلم .

ومن العفه يكون الحياء والقناعه والورع والصبر .

العدالة فىأخلاق النفس وقواهـا يتبعهـا لامحالة العـدل فى المعاملة ، وفي السياسة وفى عامة الامور (★) .

وقد اشار القرآن الى هذه الأخـلاق فى اوصاف المؤمنين فقـال تعالى : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون » . فبالايمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل .

والآن ماهو الخير الأقصى فى فلسفة الغزالى ، أو ما هى الغايـة النهائية التى يسعي اليها هذا المذهب ، وما السبيل الى تحقيق هـذه الغـايه ؟

نجيب على هذا فنقول أن الغاية العليا هى السـعادة فما هى ؟ وما السبيل الى تحقيقها ؟

السعادة عند الغـزالى هى الخير الأعلى ـ كمـا كان الحال عنـد

(★) عرض الغزالى لأنواع الفضائل فى الجزء الرابع من كتاب الاحياء ، فضيلة التوبة ، الصبر ، الشكر ، الخوف ، الرجاء ، الفقر ، الزهد ، التوكل ، المحبة ، الشوق ، الانس ، الرضا ، الاخـلاص ، الصدق ، وهى فضائل تندرج تحت أمهات الفضائل الرئيسيه الأربعة ، أنظر ص ٤ : ص ٣٣١ .

ارسطو ومسكويه من قبل . ولكن ما هذا الخير الأعلى أو ما الخيرات بوجه عام ، وما الخير الذى هو من بينها الخير الأعلى ؟

يرى الغزالى أن الخيرات فى هذه الحياة كثيرة ، ولكنها ترجع الى أربعة أمور .

١ - خيرات النفس : وهى الفضائل الأربعة التى ذكرناها وهى الحكمة ، العفه ، الشجاعة ، والعدالة .

٢ - خيرات البدن أو فضائله وهى : الصحة ، القوة ، والجمال وطول العمر .

٣ - الخيرات الخارجية وجماعها أربع أيضا وهى المال والأهل والعز وكرم الأرومة .

٤ - الخيرات أو الفضائل التوفيقية ، وهي هدايه الله ورشده وتسديده وتاييده .

وهذه الخيرات - وعددها سته عشر حزيا - التى لابد من بعضها للتوصل الى البعض الآخر أو ليبلغ ذلك البعض كماله ، ليس شىء منها هو الخير الأعلى أى السعادة فى رأى الغزالى ، وان كانت في حاجة لها كلها لتكون كاملة .

ان هذا الخير هو السعادة الأخرويه التى هى بقاء لافناء له وسرور لاغم فيه ، وعلم لاجهل معه ، وغنى لافقر يخالطه (٣٣) .

وهذه هى السعادة الحقيقية ، وماعدا هذا مما تعارف الناس على تسميته سعادة فيسمى كذلك خطا أو مجازا .

والسعادة الحقيقية التي وصفها الغزالى ، والتى فصل اليها على هذه الخيرات ليست فى اللذة أو اللذات التى يصبو اليها الجهال والقصيرو النظر ، بل فى كمال النفس .

---

(٣٣) ميزان العمل ص٨٤ (نقلا عن فلسفة الأخلاق فى الاسلام ص ١٠٨) .

إن سعادة كل انسان فى وصوله الى الكمال الخاص به ، وكمال الانسان فى ادراك العقليات والأمور الالهية على ما هى عليه إذن سعادة الانسان وكماله ان تنتعش نفسه بحقائق الأمور الالهيه وتتحد بها حتى وكأنها هى ، وذلك بأن تصير النفس عالما عقليا مرتسما فيه صور العالم كله ونظامه المحسوس منه والمعقول ، اى أن تستوفى هيئة الوجود لكى لايشذ عن علمها به علما حقا شيء منه (٣٤) .

ويرى الغزالى أن اللذة أو السعادة لابن آدم هى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فاجل اللذات وأعلاها هى معرفة الله والنظر الى وجه الكريم وانه لايتصور أن لا يؤثر عليها لذة اخرى الا من حرم هذه اللذة .

يقول الغزالى : « اعلم أن سعادة كل شيء لذته وراحته ، ولذة كل شيء تكون بمقتضي طبعه ، وطبع كل شيء ما خلق له ، فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الاذن فى الأصوات الطيبة ، ولذة القلب الخاصة به معرفة الله سبحانه وتعالى لأنه مخلوق لها .

فلذة القلب المعرفة ، وكلما كانت المعرفة اكبر كانت اللذة اكبر ، ولذلك فان الانسان اذا عرف الوزير فرح ، ولو علم الملك لكان اعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم آثار صنعته ، فلا معرفه أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته ، وكل لذات شهوات الدنيا متعلقه بالنفس وهى تبطل بالموت ولذة معرفة الربوبية متعلقه بالقلب ، فلا تبطل بالموت لأن القلب لايهلك بالموت بل يخرج من الظلمة الى الضوء (٣٥)

أما عن الطريق الى تحقيق السعادة فيرى الغزالي ان هذا يتم بطريقين عمل ، علم . العمل لتطهير النفس وازاله ما لاينبغى أن

---

(٣٤) معارج القدس : ص ١٥١ : ١٥٢ .
(٣٥) الاحياء : ج ٤ ص ٢٨٣ ، كيمياء السعادة ص ١٣٠

يسودها من الشهوات التى تزين لها حب الدنيا ومفاتنها والعلم لتحصيل ما لابد منه للوصول الى كمال النفس .

ويتضح لنا أن هذا الطريق الذى رسمه الغزالى لتحقيق السعادة هو طريق الصوفيه ، وانه انتهى الى التصـــوف لهذا آثرنا ان نعرض لأخلاق الصوفية ومنهجهم فى التصوف .

الصـــوفيه :

لاشك ان الصوفيه قد اهتمت اهتماما كبيرا بالأخـلاق ويتجه كثير من الناس فى تعريفهم للتصوف الى الجانب الأخـلاقى وهـذا الاتجـاه شائع عند الصوفية أنفسهم ، وعند غيرهم من الباحثين فى التصـــوف والمؤرخين له .

لهذا يقول أبو بكر الكتانى + ٣٥١ هـ

« التصوف : خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق ، فقد زاد عليك فى الصفاء » وسئل أبـا محمد الجـريرى + ٣١١ هـ عن التصـــوف فقـال : (٣٦) .

« الدخول فى كل خلق سنى ،والخروج من كل خلق دنى .

ويقول أبى الحسين النورى :

« التصوف ليس رسما ولا علما ولكنه خلق » .

وذهب ابن القيم في كتابه مدارج السالكين الى القول :

« واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هـو الخلق » .

هذا هو التصوف وتعريفاته من واقع أقوال الصوفيه انفسهم وتدل هذه التعريفات فى جملتها على اهتمـام التصـوف والصوفية بالسـلوك والانسان والأخلاق ، وتؤكد على عنايتهم بالتاديب والتهذيب والخلق .

---

(٣٦) د . عبد الحليم محمود : المنقـــذ من الضـــلال : تعريف التصوف ص ١٧٧ ، الرسالة القشيريه ص ١٢٧ .

ومن الطبيعى أن تكون الأخلاق الكريمة اساسا من أسس التصوف، وأن تكون فى أسمى صورة من صورها ثمرة للتصوف فهي اذن ملازمة للتصوف والصوفي ملازمة تامة ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف فكثير من الأشخاص اشتهروا بالسمو فى الجانب الأخـلاقى ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقيه واتخذوا الفضيلة مذهبا وشعارا ، ولكن ليس معنى هذا انهم من الصوفية .

فالأخلاق أساس من أسس التصوف ومعظم أقوال الصوفية تـدور حول النظام الأخلاقى ، وكذلك حياتهم ورسومهم صورة حية للمثـل العليا والتخلق بالأخلاق الفاضلة لأن التصوف أخلاق كريمة من قـوم كرام ، من أجل غاية شريفة هى الصلة بالله اذ لايتصور امكان هذا الاتصال والحصول على السعادة دون أن يسمو الانسان خلقا وأن يتهذب سلوكـا

يقول التسترى فى هذا المعنى « من لم يدخل فيما بينه وبين الله علي مكارم الأخلاق ، لم يتهن بعيشة فى دنياه وآخرته (٣٧) .

طـريق الصـوفية :

الواقع أن الصوفيه لم يهتموا بالأخلاق من الناحية النظرية فقط ، وانما عنوا أشد العنايه بالسلوك والطريق لأن التصوف طريقا ومنهجـا قبل أن يكون قولاً ونظرا .

ويلخص الغزالى طريق الصوفيه والغايه منه فى كتابه : احيـاء علوم الدين جـ ٣ فيقول :

« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطـع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعـالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

---

(٣٧) د . سهير فضل الله : الفلسفة الانسانيه فى الاسلام ١٩٩٠ ص ٢١٨ .

واذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة .

وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد الا الاستعداد بالتصفيه المجردة واحضار الهمة مع الارادة الصادقه والتعطش التـام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة (٣٨) .

وطريق الصوفية أقرب الى الالهام منه الى التعلم .

ويؤكد الغزالى على هذا بقوله أن المــرء ان صدق واخلص فى اتباع هذا الطريق ينكشف له ما يرجــو من حقائق يعز على العقل ان يصل اليها .

قال تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجـا ويرزقه من حيث لايحتسب » .

وقوله تعالى : « وعلمناه من لدنا علما » أى علما بلا سبب مالوف وهو التعلم (٣٩) .

ويفصح الغزالى عن هــذا الرأى ايضـا فى كتابه « المنقذ من الضلال . « أن هذا العلم ما هو الا نور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة (٤٠) .

ويرى الغزالى أن طريق الصوفيه انما تتم بعلم وعمل .

وحاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله (٤١) .

---

(٣٨) الغزالي : احياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٩
(٣٩) الغزالى : نفس المرجع ص ٢١
(٤٠) المنقذ من الضلال ص ٧٤ .
(٤١) المنقذ من الضلال ص ١٣٧ .

ويقول الغزالى : اني علمت يقينا ان الصوفيه هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم احسن السير وطريقهم أصوب الطـــرق وهذا الطريق أول شروطه : تطهير النفس بالكليه عما ســوى الله تعالى . ومفتاحه استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخره الفنــاء بالكيلة فى الله .

فطريق الصوفيه اذن هو طريق الرياضـــة والمجاهـــدة والتاديب والتهذيب ، وذلك من أجل الوصول الى الله تعالى ، محبته والشوق الى لقائه والبقاء بقربه .

ارتباط التصوف بالدين الاسلامى :

ان الصوفيه لهم طريق روحى يسيرون فيه ، وهذا الطريق يعتمد أساسا ومنهجا وغايه علي القرآن الكريم والسنه النبويه الشريفه وجوهر هذا الطريق هو ما سماه الصوفيه بالمقامات والاحوال ، والمقامات هى المنازل الروحية التى يمر بها السالك الى الله فيقف فيها فترة من الزمن حتى يهيىء الله له سلوك الطريقة الى المنزل الثانى لكى يتدرج فى السمو الروحي من سام الى أسمى وذلك كمنزل « التوبة » الذى يهيىء لمنزل « الورع » ثم الزهد ثم المحبة ثم الرضا .

وهذه المقامات لابد لها من جهاد وتزكيه فهى مكتسبه ، أما الأحوال فهى نسمات روحية تهب على السالك لحظـــات خاطفه وذلك مثـــل « الأنس بالله . ولهـــذا يقول أبو نصر ســـراج الطوس عن المقامـــات والاحــــوال :

« ليس (الحال) عن طريق المجاهدات والعبادات ، والرياضات كالمقامات .

فالأحوال . كما يقول القشيرى ـ مواهب ، والمقامات مكاسب (٤٢)

---

(٤٢) الرسالة القشيريه ص ٢٣٤ .

وطريق الصوفى يستند الى مقياس هو « الاقتداء برسول الله ﷺ .
ذلك انه لايوجد تصوف قط ما لم يكن اتباع كامل لشريعة صـــادقة ،
والتصوف الاسلامى لم يوجد الا باقتداء الصوفية برسول الله ، لقد احبوه
واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنه من كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيرا .

فالايمان بالله واليوم الآخر ، والاقتداء برسول الله وحبه ، والفناء
فى الذات الالهية ، هي الغايات التى يسعى الى تحقيقها التصوف .

★ ★ ★

الفصل الرابع

القيم الأخلاقيه في الفكر الحديث

لقد بلغ اهتمام الفلاسفة فى عصرنا بالقيم حدا جعلهم يطلقون على مبحث القيم اسما خاصا هو الاكسيولوجيا ، فما اكثر مايرد على السنه الناس فى احاديثهم هذه الأيام ذكر « القيــم » التى هى المثل العليا ؛ كانما أحس الناس فى عصرنا تدهوراً وانهياراً أو تمزقـا وضلالا ، ممـا أدى بهم الى تذكير أنفسهم دائما بالقيم ، عسى أن يهتدى الضال ويلتئم المتصدع ويقام المنهار على ركائز متينة فتعود الحياة الى اقوم السبل .

وفى عصرنا الحالى ظهرت فلسفات منها ما يعتمد على القوة كقيمة تمثل الأفضل « مثل نيتشـة ، ومنها ما يعتمد على الاقتصاد كقيمـــة تحدد مسار الشعوب مثل فلسفة كارل ماركس ، ومنها ما يسلط الأضواء على المنفعة التى يحققها الفعل الانسانى ، وهو ما نجده فى الفلسـفة النفعية والبراجماتية حيث التقدير للنجاح العملى فى الحياة .

وهكذا تعددت القيم واختلفت نظرة الفلاسفة اليها .

ويرى أميل بريهيه Emile Brehier أن فلسفة القيم التى ظهرت فى عصرنا ليست الا ذنب للفلسفة الكانطية التى كانت ثورة على الفلسفات التي سبقتها .

لهذا سنبدأ الحديث عن القيم فى العصر الحديث بفلسفة القيـــم عند كانط الذى استطاع — بحسب تعبير لافييل — Lavelle أن يجعل الوجود خاضعا للقيمة الاخلاقية والتى كان لها ابعد الاثر فى فلســـفة القيم المعاصرة ، ثم نعرض لقيم العاطفة عند شـوبنهور ثم نعقب ذلك بأن نعرض لأبرز الاتجاهات القيمية فى عصرنا المعاصر ، واكثرها تأثيرا فى غيرها من فلسفات .

(١٠) كانط وقيم الواجب ١٧٢٤ - ١٨٠٤

عرض كانط لمذهبه الاخـــلاقى فى كتابين : « دعائـــم ميتافيزيقا الاخلاق » عام ١٧٨٥ ، نقد العقل العملى عام ١٧٨٨ .

وأراد كانط في كلا الكتابين ان يقيم الاخلاق على مفهوم جديد هو مفهوم الواجب اللامشروط ، وأنكر ربط الاخلاقية بنتائج الافعال ، من لذات وآلام أو منافع ومضار ، وجعل قيمة الافعال قائمة فى باطنها وليس فى الغايات التى تقوم خارجها .

ويرى كانط أن الانسان لايمكن أن يستغرق حياته فى هذا العــــالم النهائى المحدود أو أن يعيش عبدا للطبيعة ، انما يرتفــــع بحياته الى المستوى الاخلاقى ، هـــذا المســـتوى الذى يدفعه الى وضع الواجب فى قلبه . يقول كانط :

« شيئان يملآن نفسى اعجابا : السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسى القانون الاخلاقى فى قلبى » .

فكانط يجعل من القلب والضمير مقرا للواجب والقيم الاخلاقيـــة كلهـــا .

ولهذا فالاخلاق عند كانط ليست نسبية أو عرضية Contingent بل مطلقه ، وواجباتها ليست فروضا بل مسلمات Categorical ولاننا كائنات عقلية فنحن أيضا كائنات قيميه نســتطيع أن نكتشف القانـــون الاخلاقى الذى يصلح لكل الافراد وفى كل زمان .

والواجبات الاخلاقيه لاتعتمد على المشـــاعر أو العواطف بل على العقل ولهذا فهى غير مشروطه ، عامة وصادقة وضرورية (١) .

(1,2) I. Kant : The Foundations of the Metaphysic of Morals : Translated by : J. K. Abbdtt, 1873. P. 156.

ويصرح كانط بان سلوك الانسان اذا صدر عما بداخله من رغبات وميول وأهواء ووجدانات فقدت ارادته استقلالها ووجب أن يستبعد سلوكه من نطاق الأخلاق (٢) .

وفي مقدمة كتاب « دعائم ميتافيزيقا الأخلاق » يشير كانط الى ان مبادىء الأخلاق تعرف معرفة قبلية سابقة على التجربة Apriori ' لأن التجربة تشهد بما ياتيه النس بالفعل من تصرفات ، ولكنها لاتستطيع أن ترقى الى البرهنة على ما ينبغى أن يفعلوه (٣) .

ويرى كانط أن الواجب يفرض ذاته على الضمير الأخلاقى قبل أن تسعى الارادة الى تحقيقه ، ومن هنا كان الواجب القيمة الأخلاقية السابقة علي كل القيم الاخرى .

وما يعنيه كانط بالقبلية هو صورية هذا الواجب Fromolité قبل أن يتجسد فى افعال مادية معينة . وهذه الصورة الخالصة والقبلية للواجب هى التى تجعله قيمة كليه تخضع لها الانسانية كلها .

الارادة الخيرة : The Good Will

الارادة الخيرة هى الشىء الوحيد الذى يمكن ان يعد خيرا على الاطلاق دون قيد ، وهى تعنى - عند كانط - العمل بمقتضى الواجب لذاته دون نظر الى نتائجه أو انتظار لمنفعه او انسياقا وراء ميل أو رغبه ، وهى بهذا تعد الشرط الضرورى الكافى لكل « اخلاقية » (٤) .

ان الفعل الذى يصدر عن مجرد ميل طبيعى أو عاطفه وجدانيه لاينطوى على أية قيمة خلقية اذ جاء هذا الفعل مفتقرا الى المبدأ الأخلاقى (مبدأ الواجب) الذى لابد للأفعال ان تصدر عنه . ومن هنا فان كانط يعرف الواجب بقوله :

---

(3) Louis. P. Pojman : Ethical Theory : P. 230.

(4) Kant : Foundation of Metaphysic of Morals. Ch. I. P. 14 — 20.

انه ضرورة أداء الفعل احتراما للقانون » .

ولا يفرض القانون الاخلاقى نفسه على الارادة ، بل يتخذ طابع الالزام لا الضغط ، ويتجلى فى شكل نظام اخلاقى لاضرورة طبيعية . نتحقق من ان هذا المبدأ الاخلاقى السامي كامن فى أعماق نفوسنا فاننا لانلبث أن نشعر بعظمتنا ورفعة شأننا ، وعندئذ ندرك أن الاخلاق تضعنا فى مستوى أعلى بكثير من مستوى الطبيعة ، وندرك أن الواجب هو مايميز مملكة الانسان باعتبارها مملكة الحرية من مملكة الطبيعة باعتبارها مملكة الضرورة .

والواجب أو المبدأ الاخلاقى الاسمى — لابد وأن يكون قاعدة عامة شاملة لا صلة لها بمتغيرات التجربة ، بمعنى أن قيمه الواجب تكمن فى طبيعة الواجب ، بغض النظر عن أية فائدة أو منفعة أو كسب مادى .

ويتسم الواجب أيضا بانه منزه عن كل غرض ، بمعنى أنه لايطلب من أجل تحقيق المنفعة أو بلوغ السعادة ، بل يطلب لذاته .

ولابد أن يكون الواجب قاعدة لامشروطه UnConditional وضرورية ، بمعنى أنه لا سبيل الى تأسيس الواجب علي شيء آخر مادام الواجب هو الدعامة التى يستند اليها كل تقدير عملى وكل حكم أخلاقى لها (٥) .

قواعد الواجب أو الامر المطلق :

يستخلص كانط من قانون الواجب ثلاث قواعد رئيسيه هى :

(*) Act Only that Maxim Wherby thou " Const at the Same time will that it would become a universal low ".

---

(٥) د . زكريا ابراهيم : المشكلة الخلقية ص ١٩٤ .

(*) Elthical Theory : Kant ., P. 229 — 230.

« اعمل دائما بحيث يكون فى استطاعتك أن تجعل من قاعـــــد فعلك قانونا كليـــا » ٠

اعتبر كانط هذه القاعدة أساس لسائر القواعد الاخرى ، وهى تعنى أن أساس السلوك الخلقى امكن تعميمه وذلك من غير تناقض ٠ أى أن يكون فعلى قانونا عاما ولا يتعارض فى نفس الوقت مع الواقع الخارجى واذا كان عكس هذا كان متعارضا مع القانون الاخلاقى ٠

2 — So Act to Treat Hunmananity, Whether in Youre own person or in that of any other, in every case as an end and never as merely ameans only.

« أعمل دائما بحيث تعامل الانسانيه فى شخصك ، وفى أشخاص الآخرين ، فى كل حالة ، كغاية لا كوسيلة فقط ٠

٣ — استخلص كانط من القاعدتين السابقتين قاعدة ثالثة هى بمثابة مركب يجمع بينهما ، وهى قاعدة الحرية لأنها تنص على ضرورة خضوع الانسان للقانون باعتباره هو مشرعه ٠

وحينما يقول كانط ان الارادة هى المشرعة العامة للقانون فهو يعنى بذلك أن لديها من الاستقلال الذاتى ما يجعل منها ارادة حرة لاتصـــدر كل افعالها الا عن طبيعتها العاقلة (٦) ٠

تعقـــيب :

استطاع كانط بحق أن يعرض لنا أخلاق بهذه الصورة الرائعة من النقاء والوضوح ، أخلاق خالية من كل شائبه ، ولايسعنا الا أن نسـجل اعجابنا الشديد بذلك المفكر الأخلاقى العظيم الذى آمن بانـــه ليس فى فى الوجود ماهو أقدس من القانون الأخلاقى ٠

ان الأخلاق عند كانط تعطى غاية سامية للحياة الانسانيه هـــــذه الغاية هى العمل ، وأهم ما يرفع من قيمة الانسان فى الأخلاق الكانطيه مبدأ الحرية ٠

---

(6) Ibid : P. 229 — 231.

ولكن ما يؤخذ على كانط هو النزعة الصورية المتطرفة ، والبعد عن الحساسية والوجدان وعدم الاعتماد على الواقع والتجربة فى مجال الأخلاق . انطلق كانط بالأخلاق الى عالم الماهيات ، وتغافل المشاكل التى تصادف الانسان فى كل زمان ومكان ، وتمثل الانسان ملاكا يخضع دائما للواجب ولا تحكمه الا الارادة الطيبة .

طالب كانط بطاعة الواجب لذاته ، واصبح من أهم خصائصه ان يكون ضروريا قبليا وليس جزئيا بعديا كسبيا ، وواضحا بذاته يصدق به العقل بمجرد تصوره ، وبهذا أصبح الواجب مبدأ صوريا مقطوع الصلة بدنيا الواقع تماما ، وهو يزود الانسان بقاعدة سلبية السلوك ، ولكنه لايمده بقاعدة ايجابية لهدايته ولا يساعده على ان يستخلص واجباته من حياته العملية ، واقترنت هذه الصورية بتزمت كان من دلالته استبعاد العواطف والميول فى كل صورها باعث على السلوك الخير ، لأن الواجب يجب ألا يصدر الا عن تقدير عقلى لمبدأ الواجب ، وبهذا أبعد كانط من مجال الأخلاق العواطف النبيلة ، التعاطف الوجدانى الخالص ، وهكذا تحولت الأخلاقية عنده الى مبادىء صورية بعيدة عن عالم الواقع .

كانط لم يفهم من الانسان الا الانسان العاقل ، بينما الانسان تقوم أخلاقه على العقل والشعور والعاطفة والبيئة والظروف الثقافية والاجتماعية جميعا .

٢ ـ القيم النفعية :

تقف الأخلاق النفعية فى الطرف المقابل للأخلاق الكانطيه . واذا كان كانط قد جعل من الواجب أساس للقيم الأخلاقية ، وجعل الأخلاق ساكتة في الشعور والضمير ، وأنكر ـ بهذا ـ ربط الأخلاق بنتائجها ، وارتفع بالقيم من المستوى الطبيعى الحسى الى المستوى الانسانى

العقلي ... فإن الأخلاق النفعية - على اختلافها - على نقيض هذه الأخلاق الكانطية ، حيث ترتبط الأخلاقية فى مذهبهم بنتائج الافعال دون بواعثها ، وتعد اللذه أو السعادة أو المنفعة هى الغاية القصوى التى تسعى اليها هذه الأخلاق النفعية .

بنتام وقياس القيم : ١٧٤٨ - ١٨٣٢

عرض بنتام مذهبه الأخلاقى من خلال كتبه : مدخل لمبادىء الأخلاق والقانون ١٧٨٩

an introduction to the principles of Morals and ligislation 1789.

وأكد فى كتابه هذا أن الأخلاق انما تقوم على مبدأ المنفعة (سواء اكانت فردية أو عامة) ، وان جوهر كل الفضائل انما ينبع من هذا المبدأ .

« ان مايسعى الناس الى بلوغه هو - فيما يرى بنتام - تحصيل اكبر قدر من السعادة لأنفسهم . ومهمة القانون هى التأكد من أن أى شخص فى سعيه الى سعادته القصوى لن يمس حق الآخرين فى السعى الى نفس الهدف ، وبهذا يتحقق اكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس .

وأسس بنتام الأخلاق على ثلاث مبادىء رئيسية هى :

١ - الفردية .

٢ - المنفعة أو السعادة .

٣ - قياس القيم عن طريق الحساب اللذى .

تطبيقا لهذه المبادىء رأى بنتام أن أى تساؤل يتعلق بالأمور السياسية أو الاجتماعية أو الأخلاقية انما يرد فى الحال الى الفرد .

أما مبدأ المنفعة فهو الغاية المرغوب فيها عامة للفعل الانسانى . والسعادة هى القيمة الأولية أو الجوهرية intrinsic والألم هو

الشر الجوهرى ، وكل الخيرات او الشرور انما تنبع من هاتين الكيفيتين .

الحساب اللذى :

راى بنتام ان سعادة او شقاء اى فرد ترد دائما الى مجموع جبرى Algebraic Sum للسعادات والآلام ، وكل مانحتاجه لقياس سعادة اى فرد ان نجمل الفضائل لسعادته وآلامه المتنوعة : فنحسب السعادة بالاضافة ، الالم بالنقصان (٧) .

ومن هذا ترى ان بنتام يقر اننا نستطيع ان نقيس اللذة والالم وبالتالى القيم التى ترتبط بهذين الاحساسين .

وعلى هذا فحساب اى مسلك من المسالك الاخلاقية سيكون بترجيح كفة اللذة على كفة الالم او تحقيق اكبر قدر ممكن من السعادة .

ويرى بنتام ان اللذة تكون واحدة بالنسبة للجميع اذا توفرت لها نفس الظروف ، ويذهب بنتام الى اننا اذا أردنا ان نحكم على اللذات فيجب ان ندخل فى اعتبارنا عدة عوامل (*) .

الشدة ، الديمومة او المدة ، التيقن او عدمه ، القرب الزمانى او المكانى ، هذه الاعتبارات تؤثر فى كم اللذات او مقدارها حينما تتعلق اللذة بالشخص نفسه . اما حينما يمتد مجال اللذة الى اشخاص آخرين

---

(7) J. Bentham : an Introduction to the Principles of Morales and Legislation Ch. IV. P. 8 — 15.

(*) Value of alot of Pleasure orpain, How to be Measured : to aperson Considered by himself, The Value of pleasure or pain, Will be greater or less, According to four Following circumstances : Its intensity, its duration, its Cartainty or uncertainty, its propinquity or remotenss, and the unmber of persons to whom it extends. or who are offected by it.

فانه يضاف الى هذه العوامل المذكورة عاملين آخرين هما : الخصـوبة Fecundity ، والنقاء أو الصفاء Purity (أى اللذة خالية من من الألم) ويضيف بنتام أخيرا عامل الشمول Extent (شـمول اللذة لأكبر عدد من الناس وتأثير اللذة عليهم .)

مجمل القول أن بنتام وضع حلم حساب اللذات ، فأكد بهذا قياس القيم ، وارتد بالأخلاق الى عالم الواقع ، وجعلها علما واقعيا وضعيا لأن القيمة الأخلاقية تتركز فى الفعل والعمل وليس فى النوايا الطيبة أو الخبيثة . وعلم الاخلاق لايهدف الى خلق أولياء وقديسيين وانمـا يرمى الى توجيه النشاط الانسانى الى اسعاد الفرد والمجتمع وطبقا لهذا يؤكد بنتام أن الانسان الذى لا يحقق سعادته الخاصة يكون فاقد العقل ، ويكون قد اخطأ فى حساباته ، لذلك فليس من الفضيلة أن يضحى الفرد بسعادته من أجل سعادة الآخرين .

تعقيب :

هل يمكن قياس القيم ؟ هل يمكن أن يعد مبـدأ المنفعة المبـدأ الأخلاقى الصحيح ، وهل يمكن أن تتحول الأخلاق بأسرها - كما رأى بنتام - الى مجرد سعي مستمر وراء الوسائل المؤدية الى تحقيق اللذات أو المنافع دون التفكير فى الغاية التى نلتمسها من وراء هذا ؟ .

١ - إخطأ بنتام أولا حينما ظن أن المنفعة ، والمنفعة وحدهـا هى الغاية الأخلاقية الأسمى ،وأن من الضلال أن ترد أفعال الانسان الى ما أسماه البعض بالغيرية Altruism ، لأنها أنانية مقنعة أو متنكرة ذلك أن التجربة تؤكد عكس ذلك لأن كثير من الناس يقدم على أفعاله بدافع الفداء والتضحية . وهؤلاء ليست المنفعة أو السعادة هى الغاية من أفعالهم ، لكن الحياة فى نظرهم وسيلة لتحقيق هـدف إكبر هو الحرية والعدالة .

٢ - اخطأ ثانيا حين ظن ان اللذات كلها متجانسة وانها تخضع لوحدة حسابية واحدة ، كما ان هذا الحساب لايمكن ان يقوم على مبدأ التاكد كما يقول ، اضافة الى ذلك ان الانسان حينما يقوم بتطبيق قواعد هذا الحساب يفقد الشعور باللذة او يضعف احساسه بها .

٣ - اما بالنسبة لقياس القيم : فهذا ممكن أو محتمل فيما يتعلق بالقيم الاقتصادية لانها تخضع لعملية العرض والطلب ، والاسعار وهذا يمكن أن يخضع لعملية حسابية .

اما فيما يتعلق بالقيم الانسانية أو الاخلاقية فهذا الحساب غير جائز القيم الانسانية يتعذر اخضاعها للقياس الرياضى وليس من السهل مثلا ان تحول عمق اللذة أو صفاءها الى أرقام رياضية .

مجمل القول أن هذا الحساب الخاطيء لا يستند الى الواقع فى شيء . فاللذة الحقيقية لا تستمد من قربها أو بعدها ، وكثيرا ما يترك الانسان لذة قريبة من أجل اخرى بعيده ، والانسان لا يفعل الخير بدافع اللذة أو السعادة (وان كان عمل الخير يشعر الانسان بسعادة ولكنها ليست الغاية من هذا الفعل) ، وانما بدافع من تحقيق السعادة للآخرين ولا يتحقق هذا الا حينما يتنازل الفرد عن انانيته ويتناس نفسه ويضحى من اجل الغير ، وهذا ما نادى به جون ستيورت مل ، حتى ليجوز القول بأن مل قد حول الانغام الخشنة الفجة الى سلم موسيقى أرق وأعذب ، فحساسيته الاخلاقية الرفيعة وتقديره للقيم النبيلة لم تستطع ان تقنعه بمذهب - يقصد بنتام - يرد كل فعل بشرى الى السعى وراء اللذة بطريقة كمية محضة .

وقد اكد مل على نحو لم يستطعه بنتام - أن اساس القيم الاخلاقية يكمن فى التعاطف الاجتماعى والمشاركة الوجدانية بين البشر . فالانسان لايستطيع الحصول على سعادته الا ككائن اجتماعى وعضو فى مجتمع .

ويرى مل ان اكبر العوامل التى تجعل الحياة شقة غير مرضية هو تمسك الفرد بانانيته وافتقاره الى التهذيب العقلى ، وعلى الانسان أن يتعلم كيف يأتي افعاله بغير باعث من طلب السعادة (٨) .

٤ — آرتور شوبنهور وقيم العاطفة : (١٧٨٨ — ١٨٦٠)

لقب شوبنهور بفيلسوف التشاؤم وباعث البوذيـة فى الفلســـفة الحديثة . عرض لمذهبه فى الوجود من خلال كتابه الرئيسى : العالم ارادة وتمثل ١٨١٩ . The World as will and idea

ويشتمل على جزين : الجزء الأول فيه عرض لنظريـــة المعرفـــة والعلم) الجزء الثانى الذى أخرجه بعد خمس وعشرين عام وعالج فيه الفن والأخلاق .

١ — العالم امتثال

«العالم حلم ، حلم ابدعته الذات فى امتثالها ، ولا وجود لـه خارج هذا الامتثال » .

« انا وحدى الموجودة ولاشىء يوجد عداى ، لأن العالم من امتثالى وتصورى » .

فالحقيقة اليقينية الأولى أو الوحيدة فى الواقع هي وجود ذات تفكر وتتصور وتشك وتتذكر ، وبالجملة تفعل وتنفعل . وماعـدا هذه الذات ، أيا كان مقداره ، ليس لدى عنه معرفة يقينية ، ولهذا فـــإن وجوده بالنسبة الى متخيل أو مظنون (٩) .

---

(8) J. S. Mill : Utilitarianism. Ch. 11. P. 6, Ch. V. P 46

(٩) شوبنهور : العالم ارادة امتثال : القسم ٢٢١ (العالم تمثل)
(نقلا عن د. عبد الرحمن بدوى (شوبنهور : ص ٦١ ، د. فؤاد زكريا: عصر الايدلوجيه ص ١٣٠ .

٢ ـ العالم إرادة : ...

جوهر الوجود الحقيقى هو ارادة الحياة . انها مفتـــاح لغـــز الوجود ولكنها عمياء هوجاء منساقة فى اندفاع شديد الى غير ما هدف ولا مقصود ، تموج بالحرمان ، ومن الحرمان ميلاد الالم فالوجود معناه الالم ، فهل من سبيل الى الخلاص ؟

أجل : بالفن خلاص من الاوهام ، وفى الزهد تحرير من نيـــر الارادة . ولكن هذا خلاص مؤقت ، لحظة عابرة سرعان ماتوقظنا من حلمها جلجلة الواقع الجبار ، فكيف الخلاص ؟ لا خلاص فى الحياة الا بالخلاص منها ، بان تنكر فينا الارادة فنمسو الى مقام اللطف والقدامة حيث تختفى اللذات وتحيا فى عدم البقاء ، فما البقاء الا فى الفناء .

هذه ـ باختصار ـ آراء شوبنهور حول الوجود ، وهى تكاد تتفق مع حكمة الهند وخصوصا عند البوذية منها : وقد كان شوبنهور رومانتيكى النزعة فوجد ملاذا عذبا فى أحلام الشرق الهندى فى اللانهائى ، ونزعة الى فناء الوجود ونشدان الخلاص عن طريق التصوف والزهد وامتـلاء بعاطفة التشاؤم وبان الوجود وهم زائل .

لقد رأى شوبنهور ـ أن حل مشكلة الشر الموجودة فى العالم ينبغى ان نلتمسها فى الأساطير البوذية . فما يسبب الالم فينا هو ممارســـتنا للارادة ومن ثم فاننا نستطيع عن طريق تخدير الارادة أن نصل فى النهاية الى « النرفانا » أى العدم . فالغيبوبة الصوفية تجعلنا نخترق حجـاب الوهم ونستطيع ان نرى العالم على أنه واحد غير أن معرفة الوحـــدة لاتؤدى فى هذه الحالة الى الاتصال بالله كما هى الحال لدى الصوفيـة الغربيين من امثال اكهارت Ekhart كما أنها لا تؤدى الى الاتحاد بعالم اسبينوزا الذى كان هو والله شيئا واحدا ، بل ان معـرفة الكـــل

والتعاطف مع الم وعذابه يزودنا - على العكس من ذلك - بمهرب الى العدم (١٠) .

اخلاق العاطفة : (المشاركة الوجدانية)

يقول « لاقيل » ان العاطفة هي مرآة للقيمة ، لانها تعكس فى ذاتها جميع الفروق الممكنة بين القيم . ومن اجل ذلك أراد البعض رد القيمة الى العاطفة لانها المرآة التي تنعكس عليها كل القيم ، وهى الميزان الذى تزن به القيم .

وقد اكد شوبنهور - انطلاقا من مذهبه الانطولوجى - ان الرحمة والشعور بها هو العاطفة الاخلاقية الاولى . ذلك ان الحياة مؤلمة ، وعلاج الانسان من هذه الحيرة وانقاذه من ازمة الوجود يكون عن طريق : طريق الفن اولا ثم طريق الاخلاق ثم اخيرا التقشف واللا اشتهاء .

١ - الخلاص بالفن :

يقول شوبنهور : « الزمان والمكان والعلية ، هذا الثالوث الجبار يئن تحت نيره عالم الامتثال والظواهر ، هل من سبيل الى التحرر من قيوده ؟ انه الفن .

بالفن وحده يكون التحرر المزدوج من قيود الزمان والمكان والعلية والفن موضوعه الصورة ، وهو خارج عن سلطان هذا الثالوث ومن نير الارادة العمياء ، بما فيها من اثرة واندفاع وانعدام بصيرة .

الفن ينحصر فى تامل الصور بنظرة عيانيه ووجدان خالص منزهين عن كل شهوة او مشيئة . « ففى التامل الفنى يصير الشىء الجزئى صورة نوعه دفعة واحدة ، ويستحيل الفرد المتامل الى ذات عارفه خالصة ...

---

(١٠) برتراندرسل : حكمة الغرب جـ ٢ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ترجمه . د . فؤاد زكريا ص ٢٠١ .

الشرط الضرورى لادراك الجمال وتحقيقه فى الفن هو التحرر من الارادة ، حتى يصير الانسان عقلا خالصا قد خلا من كل غرض وتنزه عن كل هوى ، فيفنى عن العالم كارادة ولا يبقى غير العالم كامتثال .

عالم الارادة هو عالم النزوع الجامح والشهوة ، وبالتالى عالـــم الألم المستمر والعذاب المتعدد الشكول والألوان .

أما عالم الامتثال (عالم الذات) فخال بطبعه من الألم ، لخلوه من الارادة . مهمة الفن اذن التحرر من قيود الارادة وبه يمكن التحرر من الوجود والألم .

غير ان الفن - فيما يرى شوبنهور - لايتحقق الا للعباقـــرة . فالعبقرى وحده هو الذى يملك القـدرة على التامل الخـالص والمعـرفة التحررة من قيد الارادة ، لهذا فهو ينعم بمتعة لاحد لها ، ونشوة حارة تنسيه العالم بارادته وأوهامه الخيالية .

«لكنه حلم مؤقت عابر ، وهيهات ان يكون فى الحلم جميـــل العزاء فسرعان ماتصرخ الارادة فى وجهه بأعلى صـــوت . انتبه فاتنا الوجـــود :

٢ - الخلاص بالحب والمشاركة الوجدانية

اذا كان الفن لا يتسنى تحقيقه الا للعباقرة فان ثم طـريق آخـــر للخلاص فيما يرى شوبنهور .

يقول شوبنهور : « لما انبثقت الارادة من عمائق اللاشعور كـــي تستيقظ على الحياة ، وجدت نفسها ، كفرد فى عالم لانهاية له ولاحدود وسط حشد هائل من الأفراد المجهدين . المتالمين الضالين ، ولـــا كانت منساقة خلال حلم رهيب فانها تسرع كى تدخل من جديد فى لاشعورها الأصيل ، وحتى تصل الى الغاية كانت رغباتها غير متناهية كل اشباع لشهوة يولد شهوة جديدة . ولامرضاه أرضية قادرة على تهدئة جموحها

ونوازعها أو القضاء نهائيا على مقتضياتها أو تملئة هاوية قلبها السحيق » .

فالانسان يسعى جهده طوال حياته محتملا أشد صنوف العذاب والآلام ، محفوقا بالمتاعب والعراقيل ، باذلا كل ما في وسعه من طاقة ، وكل مايحصله بعد هذا العناء كله هو أن يحافظ على هذه الحياة البائسة التافهة ، بينما الموت ماثل نصب عينيه في كل فعل وفي كل آن .

فالسعادة الدنيوية وهم يجب الاعتراف به ، والحياة شر بطبيعتها وجوهر هذا الوجود الشقاء والألم .

والانسان لايستطيع ان يقوى على الخلاص من الألم ، وان تخلص منه فما ذلك الا باثارة رغبات جديدة تولد بدورها ألم الحرمان .

« العالم كله شر والعلة في هذا هي ارادة الحياة ، فهي عمياء لاتعرف الغاية ، انها مبدأ لا عقلي ، جوهر لايفهم وينبغي الا يفهم » .

« الحياة ليست هبة أو نعمة — كما زعم انكساجوراس قديما — بل كل ما فيها يؤذن بانها دين ، دين ثقيل نسدده اقساطا على صورة حاجات كلما أوجدتها هذه الحياة ورغبات مثيرة لعذاب لاينتهي وشقاء لا يريم . فوجودنا في هذه الحياة خطيئة ، وخطيئة اخرى أن نحسب اننا قد وجدنا لنكون سعداء في هذه الحياة .

هل من سبيل للخلاص ؟ الخلاص في الحب . حسب الانسانية في هذا الحب يرتفع الانسان فوق مبدأ الفردانية ، فيشعر بان الوجود باسره كل واحد . فما أنت غيري وما أنا الا أنت لأن الفردانية زائلة عابرة ما دامت ظواهر للارادة الكلية الواحدة أما الارادة فثابتة واحدة وهي التي تكون جوهرك وجوهري وجوهر كل الناس بل وكل موجود .

الحب هو الشعور بوحدة الوجود ، وفي هذا الشعور نتحلل من كل الم ، لأن مصدر القلق والخبث في الانسان شعوره بأن ذاته المفردة هي التي تتألم وتتعذب .

فعن المشاركة الوجدانية والشعور بالايثار ينبع الخير وتتحقـق الفضيلة .

فالرحمة والشعور بها والتعاطف الوجداني يؤكد شـوبنهور هذه القيمة الأساسية فى حياتنا ويكشف بها عن وحدة الموجودات والكائنات وعن طريق التعاطف يتخلص الانسان من كهف الذاتية وسجنها ويخرج من العزلة ويندمج فى حياة الآخرين .

ويربط شوبنهور بين التعاطف والألم فيقول : « اذا كانت الحياة أليمة على هذا المنوال صح اعتبار أن الدافع لكل عمل أخلاقى ينبغى أن يكون هو الشعور باتحادنا مع المعذبين المتألمين . ومن هنا جاءت قيمـة الرحمة واعتبارها العاطفة الأخلاقية الأولى .

« الرحمة كمال فى الطبيعة الانسانية ، يجعل الفرد يـرق لآلام الناس ويسعى لازالتها . وتبلد الحسى يهوى بالانســان الى منزلـة الحيوان ، ويسلبه أفضل مافيه ، وهو العاطفة الحيه النابضة بالحـب والرأفة .

ويؤكد شوبنهور أن الحياة : طريق الآلام ، وأن السعادة ليست هدف الحياة لأن الحياة لاهدف لها ، وأن أسعد الأوقات فى حياته هو وقت النوم . انه فقط يشعر بالعزاء وهو يشارك الآخرين آلامهم ، ويكفـى الانسان أن يتخلص من أنانيته بهذه الآلام .

٣ ـ الخلاص بالزهـد .

يرى شوبنهور أن كل ما تستطيعه المحبة التلطيف من الألم ـ وليس القضاء عليه ـ لهذا فلا يبلغ الى الراحة التامة الا الذين ينكرون ارادة الحياة انكارا باتا . أولئك هم الزهاد والقديسون .

« اذا كانت الارادة هى مصدر الشقاء والشر ، فشقاؤنا منها يكون فى اخمادها ، باخماد رغباتها الخاصة عن طريق سلسلة من أفعـال العزوف .

والذى يجرب الم الحياة ووهم الفردية يفقد كل داع للعمل ، ومتى علمت ارادتنا ذلك من عقلنا وجب عليها ان تنكر نفسها وتفنى فى النرفانا .

ان من يدرك ماهية الوجود بأسره يصبح خاليا من كل ارادة ومشيئة . وهنا يصل الانسان الى حالة من الزهد الارادى والتسليم والطمانينه الكاملة والخلاص المطلق من كل ارادة ! .

تعقيب :

حاول شوبنهور – وربما فى ذلك غير متسق مع نفسه . أن يجعل الارادة تنقلب على ذاتها ، بحيث نظر الى الحياة الصالحة على انها حياة التامل المتحرر من الارادة .

فهذا الموقف يفتقر الى الاتساق ذلك أن الارادة كامنة فى كل حياة ولا يمكن أن تمحى ، لهذا فالمسالة ليست انكار الارادة أو تجاوزها .

أكد شوبنهور أن الإرادة كليه عمياء شريرة فى حين أن الشر بالذات ممتنع الوجود ، والحياة مزيج من الخير والشر . بالاضافة الى أنه لم يفسر لنا كيف تخرج الاشياء المنظمة من هذه الارادة العمياء ، وكيف نتحرر من الارادة الكلية ؟ اليس هذا التحرر بحاجة الى ارادة عاقلة ؟

واذا كنت الحياة كلها شر وهذا الشر لا يمكن علاجه لانه مغروز فى طبائع البشر – كما قال شوبنهور – فكيف هذا الجمع بين وجود الشر المزمن ومحاولة علاجه سواء بالفن أو بالحب أو الفناء ؟

فى الواقع لقد انتحر كثير من قراء شوبنهور ، فكانوا اكثر اخلاصا لمبادئه منه لانه ما ابى على نفسه شيئا من متاع الحياة وكان يتمنى امتداد عمره واستطالة سلامته لقد جعل شوبنهور من حياة القديس المثل الأعلى للحياة ولكنه فى حياته لم يكن يمثل هذه الحياة فى شىء .

ونستطيع أن نقول ان الصلة بين حياة شوبنهور وافكاره تقوم على التناقض .

ان هذا الفيلسوف لم يرى من الحياة غير هذا الجانب المؤلـــم ، ولا شك أن شوبنهور قد استمد أصول نظريته هذه من مفهومه المسيحى للعالم الا أنه قد غالى فيه • فالألم والعذاب هو ماهية الحياة التى يحياها الانسان فى هذا العالم ؟ بل يذهب شوبنهور الى أبعد من هذا فيقــول اننا يجب أن نخلق الآلام حتى نشعر بالتعاطف والتراحم بيننا ومعنى هذه النظرية التشاؤمية انه بدون الألم لايوجد تراحم بين الناس •

شوبنهور ونيتشه :

اذا كانشوبنهور قد اكد ان الحياة شر وان الخلاص من هذا الشر هو بالتخلص من الحياة فان نيتشه ـ على العكس من ذلك • قد اكد أن التغلب على الآلام يكون بمبدأ الحياة وارادة القوة • قرأ نيتشه كتـاب شوبنهور « العالم ارادة وامتثال » وهو فى ليبزج واعجب به (*) ، لكنه سرعان ما ثار عليه وعلى تشاؤمه حينما دب فيه المرض ، فكان المرض حافزاً لارادته موحياً اليه بالشجاعة دافعا به الى توكيد حياته بالرغم مما كان يتناوبه طول حياته من آلام ، وقد قال فى ذلك :

« لم يستطع اى ألم ولاينبغى ان يستطع أن يحملنى على أن أشهد زورا فى حق الحياة كما تبدو لى » •

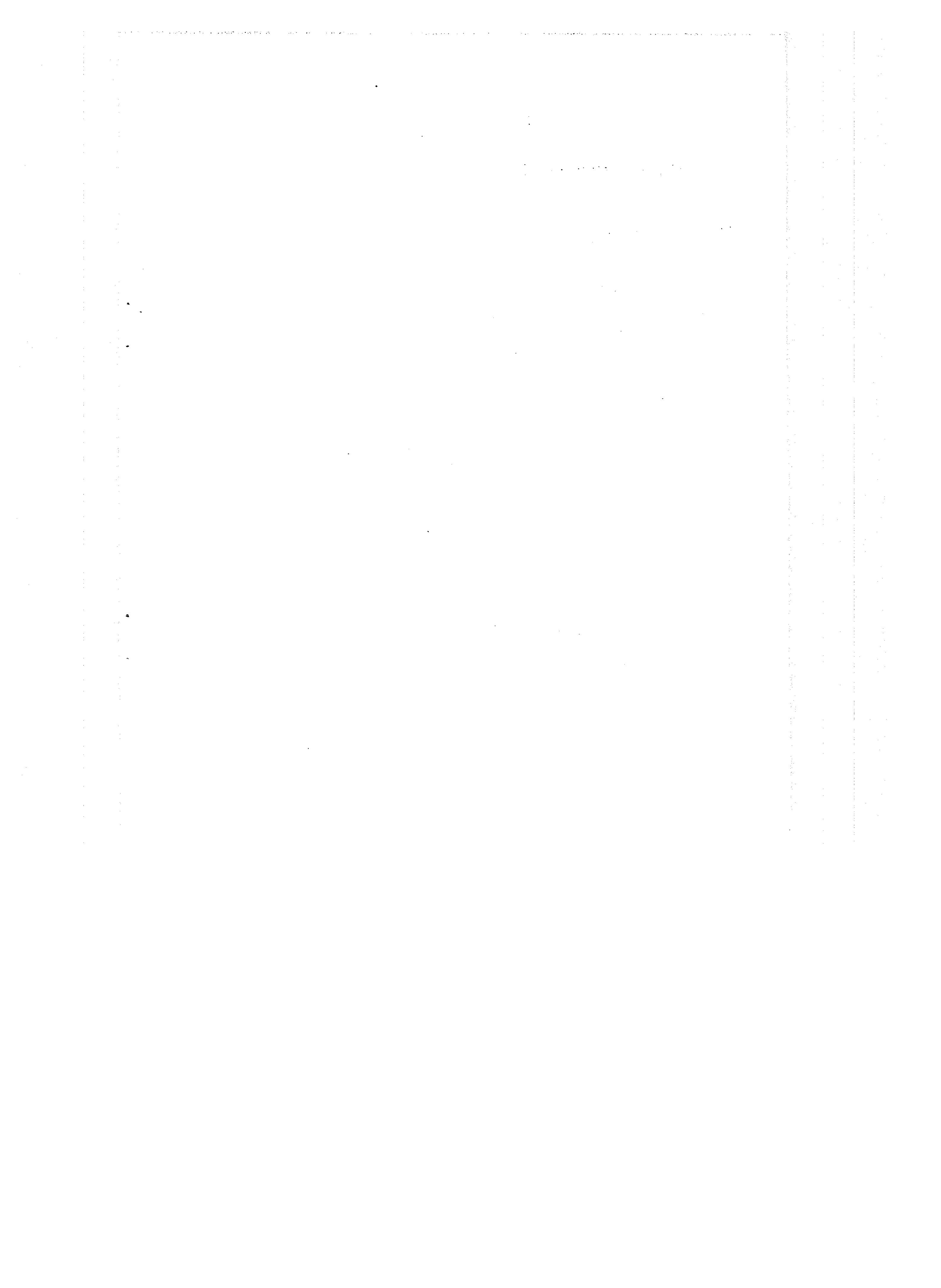
لهذا سنجد أن نيتشه يرفض فكرة العذاب والرحمة والرأفة والشفقة وكل المشاعر التى تجعلنا ننظر الى آلام الآخرين لمجرد المشاركة وبدون القضاء عليها •

فاذا كانت فلسفة شوبنهور تسعى فى النهاية الى ايجـاد مخـــرج من العالم وصراعاته ، فان نيتشه يسير فى الطريق المضاد ، ويدعو ـ كما سنرى فى الصفحات التالية ـ الى التعلق بالحياة وارادة القوة ، ومن هنا سنجد عداؤه للمسيحية ولكل القيم النابعة منها ، لأنها ـ فى نظـره ـ تتجه نحو التشاؤم عندما تعلل النفوس بالأمل فى حياة أخروية أفضل ، وتبدى تقديرا عاليا للفضائل الهابطة •

(*) قال نيتشه عن هذا الكتاب « اننى وجدت فيه مرآة طالعت فيها وجه العالم والحياة ، بل وطبيعة نفسى مرسومة فى جلال مخيف »

الفصل الخامس

القيم الأخلاقية فى الفكـر المعاصر



يذهب بعض مؤرخى الفلسفة الى ان الفلسفة العملية التى وضع جذورها تشارلزبيرس هى فى الأصل فلسفة للقيم ، ذلك أن هذه الفلسفة قد جعلت للقيمة مكان الصدارة فى تفسير مسائل الحياة والفلسفة . وقد كان لجون ديوى ـ ثالث فلاسفة الفكر العملى ـ بعد جيمس ـ أثـــره الكبير فى بيان معالم هذا الاتجاه ، واليه تنتسب بعض الخصائص التى تميز التفكير الأخلاقى .

ويتميز هذا الاتجاه برفض التصور التقليدى للحقيقة بوصفها ماهية متعقلة . فالنتائج العملية هى التى تحدد معنى التصورات وليس العكس « الكلام صواب أو خطأ والنظرية من نظريات العلوم حق أو باطل بمقدار مايعين ذلك الكلام أو هذه النظرية على ترسم طريقنـــا فى الحيـــاة العملية ، لا بمقدار تطابقه مع الواقعة التى يصورها أو إتساقه مع غيره من الأفكار . ومن هنا فكل فكرة لاتنتهى الى سلوك عملى فى دنيـــا الواقع تكون باطلة . فالنجاح هو معيار أو محك صدق الأفكار من خلال التجربة والعمل .

وقد انصرف إصحاب هذه الفلسفة عن البحث عن المبادىء الأولى والغايات القصوى كالمثل العليا الى البحث عن نتائج الأفكار وآثـــار المعتقدات .

وامتد هذا الموقف المعرفى (الابستمولوجى) الى مجال الأخـلاق والقيم ، فالخير ليس له قيمة فى ذاته (كما كان الحال عند أفلاطـون قديما) وانما قيمته مرهونه بمدى النتائج التى يحققها .

يقول بيرس « المؤسس الأول لهذا المذهب » انه لكى تتضح دلالة الفكر فاننا لانحتاج الا الى تحديد السلوك الملائم للواقع ، وللحصول على الوضوح التام فى افكارنا عن موضوع فاننا لانحتاج الا الى الاهتمام بالآثار العملية التى يتضمنها أى موضوع نتصوره (١) .

ويرى جون ديوى - ثالث فلاسفة الفكر العملى - أن البراجماتيه فى جوهرها هى نظرية فى القيمة ، وسلوكنا تجاه الاشياء هو الذى يحدد قيمتها ، وفى هذا المعنى نجد أن ديوى أقرب الى بيرس منه الى وليم جيمس .

يقول بيرس فيما يتعلق بمعنى الفكرة (صوابا او خطا) :

« المقصود بالفكرة هو أن لديك عادة سلوكية معينة انت شاعر بوجودها وتستطيع ممارستها ... » « فالفكرة التى تظن بها الصواب تفسيرها هو ما انت على استعداد للقيام به من عمل ازاءها » (٢) .

جون ديوى وتغيير القيم : ١٨٥٨ - ١٩٥٢

حاول ديوى تطبيق مناهج العلوم على التفكير الفلسفى وخاصة فى مجال القيمة الاخلاقية والسياسية والجمالية ، مما جعل القيم تتغير وفقا لما يتناسب ظروف الحياة .

وقد احتلت المشكلة الاخلاقية مكان الصدارة فى فلسفته واتجه ديوى الى اعادة بناء الفلسفة بما يحقق الاتصال بين الاخلاق من جهة والعلم من جهة أخرى .

ويرى ديوى أن المعيار الصحيح لاختبار قيمة أى فلسفة انما هو معرفة النتائج التى توصلنا اليها هذه الفلسفة فى مجال الخبرة العملية والى أى حد تؤدى الى القاء الاضواء على مصاعب وجودنا العملى فتجعل من تلك المشكلات او المصاعب عناصر مترابطة تقبل الحل .

(1) Peirce, Charles Sanders, Collected Papers : Vol 5, P. 420.
(2) Ibid : Vol. 5, P. 35.

ومعنى هذا ان فلسفة ديوى العملية لاتحصر قيمة الفكرة فى الاشباع الذى تحققه لنا فقط ، وانما تمتد لتشمل القيمة الوظيفية لهذه الفكرة حين تجىء فتحل الصراع أو الاشكال .

وفى ضوء مذهب ديوى : كل شىء فى حياة الانسان قابل للتغير ان دعت الضرورة الى تغييره ، ولايجوز ان يقف شىء - مهما كانت قيمته وقداسته - حائلا فى مجرى الاصلاح الاجتماعى وتوفير العيش الرغيد للانسان العامل ، لابد من تغيير قواعد الاخلاق ان اقتضى الاصلاح هذا التغيير . وهكذا الحال فى السياسة والاقتصاد والتربية وكل شىء قد يظن به الدوام والثبات ، فى سبيل تغيير الحياة تغييرا يجعلها أكثر ملاءمة لظروف العصر الجديد . ، ولهذا فالقيم ايضا تتغير بتغير الظروف والمواقف ، لأنها ملازمة للحياة فى تغيرها .

يقول ديوى : « ماذا يمكن ان تكون هذه القيم - فى الأخلاق او فى السياسة أو غيرها ... ان لم تكن أدوات او زرائع Instruments يستخدمها الانسان فى سلوكه ؟

جعل ديوى من الأفكار ادوات او وسائل لتوجيه السلوك وضبطه بحيث يحقق للانسان غاياته المنشودة . فمهما تكن الفكرة فهى تتضمن مشروع للعمل ، خطه كل اشكال أو مازق وهى هنا اداة للعمل ، وبمقدار نجاح الفكرة تكون صائبة . لهذا فتحقيق الفكرة لايكون فى الخلاء ، وانما يرتبط بالواقع ، هذا الواقع الذى لانراه - دائما - متفقا مع أهدافنا ، فنلجأ الى تغيره بما يناسب حاجتنا (٣) .

لهذا - من الخطأ أن تفرق بين ماهو نظرى وما هو عملى ، أى بين الفكرة وممارستها ، اذ يستحيل فصل الأفكار النظرية عن تطبيقها العملى لأن الفكر والعمل طرفان لخيط واحد احدها مكمل للآخر ومتصل

(3) Dewey : Reconstruction in Philosophy., P. 159.

به . « لا تفكير الا اذا اعترضت الانسان مشكلة تتطلب الحل ، بمعنى انه اذا لم تتعارض حقائق الواقع مع اهدافنا ، فلا يوجد تفكير . لان الفكر ينشأ حينما تصطدم حقائق الواقع مع اهدافنا ، هنا نفكر كيف نغير من هذا الواقع .

ويسوق ديوى لذلك مثلا مشهورا فى كتابه « كيف تفكر »(*) :

« افترض انى امشى فى غابة قاصدا الى غايه معينة ، ثم تعترضنى قناه : هنا اقول : اذا كان عبور القناه ممكنا بقفزة واحدة فلا تفكيــــر لانه لا مشكلة . اما اذا كانت المسافة واسعة هنا يبدأ التفكير : كيف اعبر القناه ما دامت القفزة الواحدة لاتكفيها ؟ هنا يبدأ التساؤل والفكر » .

الفكرة اذن تنشأ من علاقة وثيقة بموقف معين ، وتكون صائبة حين تحقق الهدف ، ولامعنى للفكرة على أساس عقلى خالص منفصل عن دنيا العمل ، بل نحكم بصدقها بالاحتكام الى تنفيذها .

يقول ديوى : « ليس صواب الفكرة صفة لاصقة بها بغض النظر عن اثرها فى مجرى السلوك والعمل . والحق هو مايهدينا هداية موفقة (٤)

هذه هى نظرة ديوى الى الفلسفة ، فما موقفه من الاخلاق والقيم ؟
تقوم فلسفة ديوى الخلقية على أساس الايمان بالتغير ، وأنه مازال هناك شىء يمكن عمله . ذلك انه الاخلاق عنده انسانيه بمعنى انها تنبع من صميم الحياة التى نعيشها ، وليست اخلاقا متعالية تفرض على الانسان فرضا .

والاخلاق أيضا ترتبط عنده بالمجتمع ولا تنبع من الذات أو النفس او الضمير أو العقل .

يقول ديوى : « كيف تنمو الشجرة الا باتصالها بتربة الأرض وضوء

(*) Dewey : How we Think. 1909.
(4) Dewey : Reconstruction in Ph. P. 159.

الشمس » ؟ وهذا يؤكد أن الانسان لايمكن ان يعمل ويسلك فى حياته بمعزل عن الظروف المحيطة به ، لهذا لا يمكن أن تستقل الأخلاق علما قائما بذاته لا يتصل بسائر العلوم ٠

واذا كانت الأخلاق ليست علما قائما بذاته بل مرتبطة بسائر العلوم فانها يمكن بحثها علميا ويمكن ضبطها كما تضبط سائر العلوم ٠

أصدر ديوى كتاب « الأخلاق Ehics بالاشتراك مع «تافتس» وقد ربط فيه الأخلاق بالحضارة ، ورأى ان المشكلة الخلقية فى العصر الحاضر اذا شئنا فهمها وحلها فينبغى أن توضع في اطار الحضارة الراهنة وما تقوم عليه من نظم اقتصادية واجتماعية وثقافية (٥) ٠

وطبقا لمذهب ديوى : المشكلة الخلقيه لاتظهر الا حين يتعرض الانسان لموقف تتعارض فيه الغايات، اى حينما تتعارض قيمة مع قيمة أخرى وحين نشعر بهذا التعارض شعورا يستدعى ضروبا مختلفة من الاهتمام والايثار ، وصراعا فى الميول والأفعال وعندئذ يوجد حقا « الموقف الأخلاقى » ، وهذا يستدعى ايثار غاية على أخرى وتصبح المشكلة مشكلة قيمة ٠

هذه هى فى جوهرها المشكلة الأخلاقية ٠ السلوك الذى يتجه نحو الأجدر طبقا لأحكام قيميه حيث تكون القيم موضع النظر متعارضة تعارضا يحتاج الى نظر وايثار ٠

وفى كتاب ديوى « اعادة بناء أو تجديد الفلسفة Reconstruction in Ph. فضلا عن التجديد فى الأخلاق ، حيث رأى أننا يجب أن ننظر الى الأخلاق من حيث ارتباطها بالمواقف الفعلية الفردية لا بالنظر الى سلطة عليا ٠

---

(٥) د٠ احمد فؤاد الاهوانى : جون ديوى ص ١٣٠ ٠

« كل خير هو الخير خاص بموقف معين ولابد من العمـــل على استكشافه فى هذا الموقف المعين والحصول عليه على أساس ذلك النقص الذى يراد سده فى هذا الموقف ، والشر الذى يراد علاجه (٦) .

ورأى ديوى أن من الممكن تطبيق العلم التجريبى فى مجل الاخلاق يقول ديوى :

« الحق صفة نصف بها صيرورة وحركة وسيرا وفعلا ، ومعنى هذا الا يكون الحق سابق على الانسان وخبـرته ولكنه يأتى من مجمـوعة مشكلات عملية فى الحياة الانسانية » .

وتفترض هذه النظرة عدم الثبات فى القيم والمعايير وتستوجب ضرورة تغييرها لتلائم الظروف القائمة . ولهذا فكل فـرد مسئول امام المشكلة التى تعترضه ، مسئول عن حلها حلا موفقا ، فيكون هذا الحـل الموفق هو الصواب .

واعترافنا - على لسان ديوى - بأن الحـــق هو نجـــاح التنفيذ انما يضع على الناس مسئولية أن ينفضوا ايديهم من الاعتقادات الجامدة فى السياسة والأخلاق ، وان يخضعوا اعز معتقداتهم للاختبار العملـى الذى يجعل النتائج مقياس للحق (٧)

ويرى ديوى أن القيم الخلقية ليست وليدة اجتماع الناس بعضـهم ببعض كما ظن الوضعيون ، ولاهى من وحى السماء كما يقول رجال الدين ولا نتيجة حكم العقل كما يرى كانط فهذه المذاهب فى الاخلاق - فى تصوره - تغض النظر عن حياة الانسان بتفصيلاتها ، وكان الانســـان حقيقة مجردة قائمة فى الفراغ وليس متصلا باقوى الدوافع مع بيئتـــه وظروفها .

---

(6) Dewey : Reconstruction in Ph. P. 278.

(7) Ibid : 162.

الأخلاق مهمتها أن تتناول الواقع بالتغيير لتسير به نحو قيم خلقها الانسان لنفسه بوحى من ظروفه ، كما تتحقق له حريته . والمعيـــار الأوحد هنا هو حياة الانسان وظروفه ومشكلاته .

ويطالب ديوى بأن يكون « النمو » أو « التحسن » أو « اعـادة البناء » هو الغاية التى تنشدها من الأخلاق . وقد كان لمذهب التطور - فيما يرى ديوى - أثر عظيم على الأخلاق لأن فكرة التطور تتصل بالنمو المتصل وبالتقدم .

والفلسفة التى تأخذ بالتقدم تدين فى الوقت نفسه للتفاؤل والتفاؤل يفسح المجال للأمل ، ويفتح آفاقا جديدة ويخص أهدافا جديدة ، ويبعث النشاط فى جهود جديدة (٨) .

وطبقا لهذا يرى ديوى أن ليس هناك فارق بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن بالفعل لأن الأول يصدر دائما عن الثانى . فالحاجـــة أو الرغبة التى تخرج منها أهدافنا وتصدر عنها طاقتنا هى التى تمضى بنا الى ما وراء كل ما هو قائم بالفعل .

والغايات عند ديوى ماهى الا أهداف يضعها المرء أمامه ، ويقوم بالتصويب نحوها ، لهذا فليس للغايات أو الخيرات وجود فى ذاتها ، وانما توجد حينما يكون هناك ثمة شىء لابد من عمله . والعمل دليل على وجود شىء ناقص لابد من اكتشافه والعمل على اصلاحه بهدف الوصول الى الكمال .

ان ثبات الأهداف التى نسعى اليها - فيما يقول ديوى - يؤدى الى فقدان الهمة والقعود عن العمل .

الأخلاق ثمرة للعمل ، والانسان باعتباره كائن طبيعى كغيره من الكائنات ينمو ويتطور ويتقدم ويتغير . لهذا فالتحسن والنمو والتعديل

---

(8) Ibid : P. 138, 139.

صفات ملازمة لعالمنا الاخلاقى لأن هذا العالم ليس افضل العوالم وهو بحاجة دائمة الى العمل على اصلاحه ومواجهة مافيه من نقص .

يقول ديوى :

« من الخطأ ان نلجأ الى الخمول والكسل وننصرف عن العمل والنشاط بدعوى أن الزمن كفيل باصلاح كل شيء بل يجب أن نعمل على تغيير الواقع بقدر ماتسمح به ظروفنا والاستفادة من الاخطاء لأنها دروس نتعلم منها كيف نستخدم عقولنا الاستخدام الأفضل » (٩)

ويربط ديوى الاخلاق بالتربية فيرى أن الاخلاق يمكن تهذيبها عن طريق التربية لأن عملية التربية والعملية الأخلاقية شيء واحد .

وقد عرض ديوى للصلة بين الاخلاق والتربية فى كتابيه ، الخبرة والتربية Experience and Education ١٩٤٨ ، وكتاب ، المبادىء الأخلاقية فى التربية Moral Principles in Education

وقد اوضح فى هذا الكتاب الأخير عن الفهم أو الادراك الجوهرى للمبادىء الأخلاقية فى التربية .

Afundemental Understanding of Moral Pinciples in Education.

فالمعلم فى حاجة الى فهم الراى العام والنظام الاجتماعى كما أن الراى العام فى حاجة ايضا الى فهم طبيعة الخدمة التربوية التجريبية .

فاساس الفكر التربوى لابد أن تنبع من المبادىء الأخلاقية فى التربية (١٠) .

والأخلاق تتحقق فى المواقف والأعمال ، وأعمال المرء لا تنعزل عن المجتمع ولهذا فالأخلاق ظاهرة اجتماعية وهى ترتبط بالواقع

---

(9) Dewey : Reconstruction in Ph. P. 140, 141.

(10) John Dewey : Moral Principles in Education introduction : IX.

او بما هو كائن ويترتب على هذا اننا اذا شئنا تحسين الأخلاق فعلينا أن نعدل النظم الاجتماعية وأن نحسن تربية الفرد . وفى ذلك يقول ديوى .

« اذا كانت موازين الأخلاق منحطة فذلك ناشىء من نقص التربية التى يتلقاها الفرد فى تفاعله مع بيئته الاجتماعية (١١) .

صفوة القول أن الأخلاق عند ديوى اخلاق مرتبطة بالواقع والانسان والمجتمع ، ولهذا فهى ليست اخلاق جامدة ساكنه وانما تخضع دائما للنمو والتغير والتقدم طبقا لظروف الواقع ومقتضياته ، وقواعد الأخلاق هنا لاتفرض على الانسان وانما تنبع من صميم الحياة التى يعيشها .

وديوى نفسه يدعو الى تغيير الواقع واعادة بناءه بما يتناسب مع ظروف الحياة . والايمان الحق - عنده - هو ايمان بالكشف عن الحقيقة التى تحل كل مايعترض الانسان من صعاب ، الايمان بمنهج يساير التفكير والحياة العملية لا بحقيقه ثابتة كمل تكوينها ولا تقبل النمو والتغير .

فديوى ليس صاحب مذهب مغلق بقدر ما كان صاحب منهج يفتح له الآفاق ويشق الطريق فى عالم التغير ، منهج يحاول ان يستخلص الحقيقة وسط هذا التغير الدائم والجريان المتصل .

والانسان - فى راى ديوى - ليس فردا منعزلا ولكنه جزء من بيئته الحضارية التى يتاثر فيها والحضارة الحية هى التى لا تتوقف عن النمو لأنها حين تعمد الى العزلة والجمود تفقد ما فيها من حيوية . وتتقدم الحضارة حين يعمل كل فرد فى المجتمع بحريته مفكرا متعاونا مع غيره من الأفراد ، وينشا عن احتكاك الفكر بالفكر قوة اجتماعية عظيمة تاخذ بالمجتمع الى الأمام .

---

(١١) د. احمد فؤاد الأهوانى : جون ديوى ص ١٤٠ .

تعقيب :

لقد اثارت الفلسفة العملية الكثير من الانتقـــادات ، واعترض الفلاسفة على تعريفها للقيمة والحقيقة . اية حقيقة هذه التى نستمدها من نجاح النتيجة العملية أو نجاح السلوك ، وكيف يـــؤدى العمـــل الى الحقيقة ؟ وتبنى القيمة على نجاح العمل ؟

لاشك ان اصحاب هذه الفلسفة قد تاثروا عند وضعها بالبيئة الأمريكية الصناعية التى عاشوا فيها ، فجاءت فلسفتهم تعبيرا عن عصر الصناعة الذى يدعو الى التغير .

الواقع انه أيا كانت ذاتيه القيم ونسبتها ، فلابد من وجود قيـــم موضوعية يجمع الناس عليها ، هذه القيم تتصف اكثر بالثبات .

فالحق أو الخير يجب أن يكون بعيدا عن الخلاف بين الأفـــراد والنزاع بين المجتمعات ، وأن يعد الحق أو الخير مستقلا عن العقل الذى يدركه والظروف التى تحيطه .

ويكفى ان نعتبر البراجماتية الحق أو الخير كسلعة المطروحة فى الأسواق ، قيمتها لاتقوم فى ذاتها ، بل فيما يدفع فيها من ثمن .

هذا الموقف البراجماتى من القيم الخلقية والمعتقدات الدينية يجعلها اقرب الى الوهم والضلال منها الى الحقيقة .

فاذا كان ديوى يرد خيرية الاعتقـاد او شـرية الى النشـاط الذى يبعثه فيمن يدين به ، والإعتقـاد بالله مرجعـه الى تقـدير أثره فى حيـاة صـاحبه دون اكتراث بحقيقـة الايمـان من الناحية الموضوعية فإن هذا الاعتقاد ليس من الحقيقة فى شىء ، بل هو اقرب الى الضلال منه الى الايمـان .

ذلك أن الايمـان الصـادق يستقل تماما عما يترتب على وجـوده من نتـائج وآثار .

نيتشــة وقلب القــيم :
Nietzche and the trans Valution of Values

يذهب بعض الفلاســفة ومؤرخى الفكر الى اننا يمكن أن نعتبــر الفيلســوف الالمــانى فريدريك نيتشــه ١٨٤٤ - ١٩٠٠ الاب الــروحى لفلسفة القيم ، ذلك انه أول من زعزع اليقين فى القيم التى كانت سائدة والتى لا يجــرؤ احد على مناقشتها .

وهذا يعنى انه هو الذى ساعد على ابراز مفهوم القيمــة بجعلها المحــور الاســاسى للقضــايا الفلسفية ، أو جعلهــا تقفــز الى المرتبــة الأولى فى مجال اهتمامات الناس وخاصة الفلاسفة منهم .

ان نيتشــه يصــرح بأن الانســان هو الذى يفرض القيم على الوجود فهو الذى يفهم ويعى ما يراه بخصوص كل شىء ، ويجب أن تكون له اليد العليــا فى تحــديد أبعــاد تقــديره ، والا فقد انســانيته ، ومن هنا كان لمفهوم القيمة المرتبــة الأولى فى فكر هذا الفيلسوف .

وقد ثار نيتشــه ثورة عــارمة على كافة الافكار والعــادات والتقاليد التى كانت معــروفة فى عصــره ، يدعو بقســوة وشجاعة الى ضرورة تقويضها وازالة معالمها عن طريق العنف والقســوة ، وكان يهدف من هذا الى انقــلاب شــامل فى القيم يقوم على تبديل الأوضــاع الســائدة على أسس عن الخلق والابداع وازاحة كل ما يعترض فاعلية الانســان من عقبــات .

والحيــاة بمعناها الصحيح عند نيتشــه هى التى تتصــرف فى ايجاد كل القيم لانها اصــل القيم العقلية والاخلاقية ، والمبدأ الكــامن خلف كل معــرفة وكل سلوك انســانى .

نيتشــه وارادة القــوة :

تساءل نيتشـــه عن الحيــاة قائلا : « تريــدون أن تحيوا بحسب الطبيعــة ؟ أيها الرواقيون النبــلاء . أى ضــلال ضلالكم ، تخيلوا منظمة

مثـل الطبيعـة . انها اسـراف بدون اعتدال ، بدون نية ، بدون احترام بدون رحمـة ، بدون عـدالة .انها خصب وعقم معـا ، انها تردد وحيرة. تخيـلوا اللا مبالاة التى تتحـول فى الطبيعـة الى قوة وبأس ، كيف يمكن ان تعيشوا بحسب هذه اللا مبالاة ؟ اليست الحيـاة على وجـه الدقة هى ارادة التقويم والترجيح والظلم ، وان يكون المـرء متقيـدا على نحو آخر ؟

ان الطبيعة لا مبـالاة بالدرجـة الاولى ، والحيـاة هى أن تقول لا حيال الطبيعة . الحياة تقويم ، ولكنه بالضرورة تقويم متعال (١٢)

من هـذا نرى ان نيتشـه كان يدعو بقـوة الى محـاربة الطبيعة والى تحويل القيم كلهـا من أجـل ان نهتدى به للحيـاة التى هى ذصدر كل شى ءوعمـاده ، والتى هى الشى ءالوحيد الذى كان يؤمن به ، ويرى فيـه نوعا من المطلق .

إن ايمـانه بالحيـاة هو الذى حمـله على كسـر الواح القيم — كما كان يسميها — القديمة لانها تقضى عليهـا وتمنع نموها وازدهارها .

لقد حارب نيتشـه هذه القيم ولاسيما قيم المسيحية التى تخـلى عنها فى ازمة روحيـة حادة اعلن فيهـا موت الله Death of God وكان يرى فى هذا اكبر جريمة ضد الانسـانية .

يقول نيتشـه على لسـان مجنون Superman فى كتابه المعـرفة — الحكمة — المرحـة The Joyful Wisdom

« اين الله ، انتى ابحث عنه فلا أجده ، لمـاذا فقد .

Wher is God, I seek God I seek God, Why is he Lost ?

---

(12) F. Nitzsche, Beyond Good and evil P. 20.
Reprinted from the Comblet works of Nietzsche, ed. Oscar - Levy. Vols 10 and 11 (J. N. Foulies 1910).

ويجيب على هذا ... بعد عدة افتراضات : لقد قتلنا الله ، أنا وأنت نحن جميعـا قتلة . ان اسمى واقدس ما كان للعالم قد صرعته سكاكيننا فمن ذا الذى ينظفنـا من لطخة الدم هذه ؟ أليست عظمة هذا الفعـل تفوتنا بكثير ؟ وهل لا يجب علينـا ان نصـير آلهـة ؟ الا ، فليكن ذلك حتى نثبت اننا نستحق قيامنا بهذا الفعـل الذى قمنا به »(١٣) .

ويتحدث نيتشـه ايضـا فى كتابه « هكذا تكلم زرادشت عن موت الله حين يعلنها صراحة على لسـان النبى .

« الم يسمع هذا الحكيم العجوز ان الله قد مات » .

ان الذين يعيشون من اجـل الله فقط ؟ فان الههم قد مات ويعنى نيتشـه بموت الله أن عصـور المسيحية قد أنتهت وجاء عصر الانسان ، وان الذين كانوا يمجدون الله عليهم اليوم أن يمجدوا الانسـان ، لأن الههم لم يعد فى حاجة الى من يقدم له القرابين ويطلق البخور .

ان نيتشـه يأتى بدعـوة جديدة هى قلب القيم السـائدة ، فالقيم المسيحية تدفع الى قهر الانسـان واذلاله وتخدع الفقـراء بجعلهم افضل من الأغنيـاء .

ان ايمـانه بهذه الدعـوة الجديدة هو الذى حمـله على التبشـير بظهور الانسـان الأعلى Superman لأنها تقتضى وجـوده .

اخـلاق السـادة والعبيـد Master and Slave Morality

يرى نيتشـه فى الحيـاة « ارادة قـوة » لأن حركتها التلقـائية لديه ليست لحفظ الفـرد أو الجنس ، ولا للبحث عن اللذة أو السعادة ، ولكن لحشـد القـوى وتنميتها من اجـل السعادة والسيطرة .

---

(13) Nietzsche : The Joyful Wisdom, Y. 209. (From Ethical Theory by L. P. Pojman P. 122.

فالانســان الحى لا يوصف بالانانية ولا يحتوى سلوكه ايضــا على على ميــل غيرى ، لأن الانتصــار هو الذ ىيهمه بالدرجــة الأولى . ولذلك فهو يبحث عن العــراك والصدام ، ويرضى به ويخــاطر فيــه بحيــاته ، ويتحمل آلامه .

والحيــاة ارادة قوة تعنى أنها صــيرورة وحــركة وتطور فالتطور والنزاع من اجــل الوجود ودوام الأقــوى افكار قال بها دارون وتحمس لها نيتشــه وطبقها فى مجال الأخلاق . فهو يقول : « ان غــاية التطور هى تكوين افــراد يمتازون بسموهم بواسطة عدد لا متناهى من الأفراد العــاديين » .

ويذهب نيتشــه الى القول بأن الحيــاة تميل الى خلق كائن هو الانســان الأعلى الذى سيكون بالنسبة للانســان الحالى كالانســان الحالى بالنســبة الى القــرد . « ان الانســان شىء يجب تجــاوزه » هــكذا يقول زرادشت(١٤) .

ويمضى نيتشــه فى هذا الاتجــاه قائلا ان الأقوياء والنبلاء ، وهم اعلى من ســواهم بالمنزلة الاجتمــاعية أو بسمو الــروح ، هم الذين يعتبرون انفسهم صــالحين ، وهم الذين حكموا على اعمــالهم بأنهــا صــالحة لأنها ترتفع عما هو عامى ، متبذل ، سافل شعبى . انهم يعون انهم فوق العــامة ، ولذا أعطوا لأنفسهم حق خلق القيم .

الا ان النبــلاء والأقوياء لم يخلقوا وحدهم القيم ، وانما البؤساء والفقــراء والعــاجزون والمرضى خلقــوا أيضــا قيمهم الخاصة . ذلك أن الصــبر والتضحية والتواضع ، وما شــابه ذلك هى فى نظــرهم قيم ايجــابية(١٥) .

---

(14) Nietzsche : From Ethical Theory., P. 122.
(15) Ibid : P. 124.

ان نيتشه يميز الانسان بكونه خالقا للقيم ولكنه لا يعتبر من بينها الا تلك التى تنعش الحياة وتقتضيها ارادة القوة واما تلك التى يتمسك بها الرعاع فانه يحتقرها ، ويحط منها لانها فى نظره قيم اخترعتها الانسانية التى تتكون من الضعفاء والعبيد ومن يشبههم لتحمى نفسها بها من الاقوياء والسادة ٠

ولهذا فاول عمل يجب القيام به — فيما يرى نيتشه — هو تكسير ألواح القيم القديمة وعتق الانسان من الاوثان التى خلقها ٠

يقول نيتشه :

« صدرت القيم التى خلقها العبيد عن الكذب ، وعن هذا انبعثت طائفة كبرى من المفاهيم الزائفة ٠ فقد تخيلوا الها وتخيلوا روحا سرمدية ، وتخيلوا واجبا فرضوه على العمل ، باختصار صنعوا مثلا اعلى ونظروا اليه على انه الحقيقة ٠ وان من يكشف القناع عن الاخلاق يكشف فى الوقت ذاته القناع عن لا قيمة كل القيم التى يؤمن بها هؤلاء العبيد الضعفاء ٠

ان القيم الحقيقية هى التى ابدعها الأسياد كرد فعل حقيقى ضد القيم الاولى او الاوثان ٠

يقول نيتشه : « اننى لا اقيم اوثانا جديدة ٠ فلتعلم الاوثان القديمة ان قلبها هو مهمتى ورسالتى »(١٦) ٠

هكذا رفض نيتشه ما أسماه بالواح القيم ممثلة فى القيم الدينية فالايمان بالله ، القيم النظرية ممثلة فى الفلسفة والعلوم الصادرة عن الايمان بالحقيقة ، والقيم الاخلاقية كالايمان بالواجب والالزام الخلقى ، الفضيلة والرحمة ٠

---

(١٦) نيتشه : هذا هو الانسان ص ١٧٥ (نقلا عن : د ٠ عادل العوا العمدة فى فلسفة القيم ص ١٢٧) د ٠ فؤاد زكريا : نيتشه : انقلاب القيم ص ٤٨ — ٥٧ ٠

هذه القيم جميعها — وهى تمثل قيم العبيد — مرفوضة فى نظره لانها تعارض حركة الحياة وارادة القوة ·

ولهذا فان عملية خلق القيم لا تتم الا بفضل هذه الارادة القوية التى تتغلب على الضعف ، وهذه الارادة لا تدفعها روح العدالة ، لأن الانسان الأعلى لا يتساوى مع الآخرين ، انما تدفعها روح الانتقام · الارادة خالقة ويجب أن تكون هذه الارادة ارادة القوة تحطم القيم القديمة قبل ان تخلق القيم الجديدة ·

يقول نيتشه فى كتابه « هكذا تكلم زرادشت » :

« ان الانسان اليوم هو كالنهر الملوث الذى يجب ان يتحول الى محيط من الماء الطاهر النقى » ·

« العدالة نار مشتعلة وحجر ملتهب ، والتقوى ليست صليبا يحمله الانسان ويصلب عليه » ·

« لا احب الذين يبحثون عن سبب ما يدفعهم الى التضحية والموت ولكنى احب الذين يضحون بانفسهم من اجل ان يمتلك الانسان الأعلى هذه الأرض »(١٧) ·

هكذا يريد نيتشه أن يزرع الأمل فى الانسان الجديد الذى يحطم القديم من أجل الجديد ، وهو لا يريد بهذا أن يكون راعيا للقطيع وانما يريد ان يكون خالقا للقيم ·

تعقيب :

هدم نيتشه التصور المألوف لمشكلة القيم الأخلاقية ، وتصور مثله الأعلى قائما فى ارادة القوة ، وأدى هذا الى قلب القيم المتعارف عليها ، وتوكيد الأنانية والبطش بالآخرين ، وتمجيد القسوة والمغامرة والسيطرة على الآخرين وبهذا ارتد نيتشه بالانسان الى

---

(١٧) د· نازلى اسماعيل حسين : فلسفة القيم ، ص ١٠٢ ·

شـريعة الغـابة ، ونسى نيتشـه ـ فى غمـرة حماسه ـ ان القيم السلبية التى هاجمها بعنف هى القيم الايجـابية وانهـا تتطلب من قوة النفس اكثر مما تتطلب القيم التى ادعى انهـا ايجـابية ومجـدها واعلى من شـانها .

وقد راى نيتشـه انه اذا اردنا ان نعيـد للانسـان مكانته فى الحياة فلابد إن نجعـله « القيمة فى ذاتها » وان نضعه على رأس قائمة القيم ، وهنا ايضـا نجده قلب الوضـع السـائد ، فبعد ان كان الله هو القيمة العليـا ومصدر القيم جميعهـا ، طالب نيتشـه بجعل الانسـان مصدر القيم العليـا .

وهكذا انعكست القيم ، واصبح كل ما هو نابع من الدين والاخلاق يمثل ـ فى نظر نيتشه ـ مواقف ضعف واحتقار .

ان ارادة القـوة التى يقول بها نيتشه مرفوضة اذا نظرنا اليهـا مثله على انها قوة عمياء ، تمجد ذاتها ولا تطلب غاية الا ذاتها .

فالاخلاق لابد لهـا من غاية تهذبها وتجعـل منها قوة فى خـدمة الخير لا الشـر . لهذا فان ما يجب ان يكون عليه الانسـان هو قـوة الارادة التى توجه لا ارادة القوة التى تسحق وتدمر .

اما تحـويل القيم الذى يدعـو اليـه نيتشـه فهو تحـويل سلبى ان جـاز التعبير .

فالقسـوة والقـوة والانانية وكره الضعفاء قيم سلبية ـ لا ايجابية ـ كما يدعى . ولا يمكن ان يعتنقها الا انسـان فاقد الوعى والضمير ، لهذا كان نيتشـه فى قلبه للقيم اقرب الى الهدم منه الى البناء .

ان مبادىء الدين والاخـلاق التى رفضها نيتشـه بدعـوى انهـا اخـلاق العبيد لا يمكن دحضها او تغافلها لان الدعـوة الى الاخـلاق والقيم قديمة قـدم الانسـان ذاته ، وما من انسـان ـ فى اى عصـر

من العصور – قد استطاع ان يعيش بمعزل عن جيرانه ، او بدون تعاون او على أساس مبدأ اخلاقى يدين له بالطاعة والولاء . فهذه القيم التى رفضها نيتشه انما تطلب من كل انسان يريد أن يعلو على ذاته .

كما أن تقسيم البشر الى سادة وعبيد امر لا صحة له ولا داعى اليه . فالناس جميعهم سواسية ولا فرق بين احد وآخر الا بعمله ، ولا معيار للتقسيم بين قوى وضعيف لأن هذا امر نسبى . فالضعيف فى ميدان قد يكون قويا فى ميدان آخر .

ولكن أيا كان الاختلاف حول آراء نيتشه الا أنه من المؤكد انه يعد من أهم مصادر فلسفة القيم فى الفكر المعاصر .

واللا اخلاقية عند نيتشه لا تعنى التحلل من الأخلاق جملة ، وانما تعنى ثورة على الأوضاع الأخلاقية القائمة ومحاولة لقلب القيم الأخلاقية المتعارف عليها والتى يخضع لها الناس فى عصره ، اى الكشف عن قصور المبادىء الأساسية للسلوك الانسانى ومحاولة اصلاح هذه المبادىء أو استبدالها من أجل انسانية أفضل .

والقيم عند نيتشه مرتبطة بالحياة وهذا دليل على نسبيتها ، لأن الحياة مطالب متجددة وهى لا تخضع لصيغة منطقية جامدة يمكن ان تثبت على اتجاه واحد .

والانسان الأعلى عند نيتشه ليس انسانا طيبا يخضع للقيم الأخلاقية المتعارف عليها بل هو انسان يسعى الى مزيد من الحيوية فى كل شىء .

وينبع عداؤه للمسيحية من تصوره لهذا الانسان الأعلى الذى هو محور القيم وأساسها .

« الله قد مات » . كن نيتشه يؤمن بذلك عقليا وعاطفيا هكذا يتساءل زرادشت بلسانه : « ان كان ثمة آلهة ، فكيف كنت أطيق الا اكون الها ؟ » لذلك فليس ثمة آلهة . غير أن رفض نيتشه للمسيحية لا يستتبع انكار وجود الله فحسب ، وانما هو يعارض بعنف المسيحية التى يعتقد انها عممت اخلاق العبيد الموروثة عن اليهود ووقفت فى جميع المراحل حجر عثرة فى وجوه التنوير العقلى والحرية الروحية .

وهكذا فان ما يعترض عليه نيتشه بحق هو اخلاق الخدمة الداعية الى الطيبة والتواضع والاحسان . بوصفها اعلى الفضائل المسيحية

يقول زرادشت : « ى لابتهل اليكم ، ايها الاخوة ، ان تظلوا مخلصين للأرض ، والا تصدقوا من يحدثكم عن آمال تعلو على الأرض ! انهم ينفثون السم ، سواء اكانوا يعلمون ذلك أم لا يعلمون » .

وهكذا ينبغى – فيما يقول نيتشه – أن يعترف دعاة المسيحية المتحررة ان المسيحية قد فقدت اخيرا قوتها المخلصة .

ويمكن القول بان مذهب نيتشه هو قبل كل شىء دعوة اخلاقية الى العمل ، العمل على تغيير الواقع وتغيير القيم لانها اصبحت ضعيفة بالية ، ولان الاخلاق قد بهتت وزيفت حتى انفصل مظهرها عن جوهرها وتعارض مدلولها مع حقيقتها .

خاتمـــة

القيــم الخلقيــة : رؤيــة نقدية

وبعد ان عرضنا لشتى الاتجاهات القيميــة فى الفكر الاســلامى والفكر الحديث والمعــاصر نستطيع ان نقول ان القيمــة الاخــلاقية او القيم الاخــلاقية على اختلافها انما تلتقى عند ثلاث محاور . فالقيمــة الاخلاقية هى اولا قيمة انســانية ، وثانيا قيمة عمل او فعــل ، وثالثا قيمــة حــرية .

١ - القيمة الاخــلاقية هى ما يصــل بين العــالم والانســان ، ولا يكفى أن نحدد ماهية القيمة ومعناها وانما المهم أن ندرك اهميتها فى حياتنا وخبرتنا المعاشة ، لذا فان أول صــورة من صــور القيم انما هو الوعى بضرورتها وأهميتها . وتاتى اهمية القيم فى انها تشهد بطموح الانســان ونزوعه الى التســامى وتطلعه الى مزاولة حيــاة انســانية كريمة ورغبته فى الارتفاع فوق مستوى البهيمية المجــردة .

والعلم وحــده لا يكفى لحل مشكلة الانســان ، لذا تاتى أهمية القيمة الخلقية فى حياتنا . الاخــلاق هى القوة الروحية الكبرى التى استطاعت أن تعــلو بالانســانية الى مستوى أرقى بكثير من المستوى الطبيعى التلقــائى .

واذا وقــع فى ظن البعض أن المعــرفة العلميــة قد حلت محــل المعــرفة الخلقية وأن العلم قد أصبح كفيــلا بحل كل مشكلات السلوك ، فان التجربــة قد اثبتت للناس أن العلم نفســه لا يمكن أن يقوم الا على أســاس اخــلاقى . وهكذا ادرك الانســان انه ليس العلم وحده هو الذى يصنع الانســان بل الانســان هو الذى يصنع العلم وذلك بفكره واخلاقه وقيمــه وابداعاته .

فالقيم الاخـلاقية فى تصـورنا وليدة الانسـان الفـرد هو الذى يضعها عن تعقـل واختيـار وتدبر . وقد توهم الكثيرين من انصـار المذهب العمـلى أن مهمـة الاخـلاق هى الاقتصـار على وصف وقائع السلوك ، دون الامتداد الى الحديث عن أى مثـل أعلى . وفات هؤلاء ان الموجود البشـرى بوصفه كائنا مريدا حـرا – لا يستطيع أن يحيا فى مجتمعـه دون أن يصـدر حكما على أخـلاق هـذا المجتمـع أو تقييم المعـايير التى تحكمه . فالناس على اختلافهم يعملون جاهدين فى سبيل بلوغ بعض المثـل العليـا التى تسمو فوق مستوى الاشباع العضـوى أو اللذة المبـاشرة ، والخلاف بينهم انما يرجع الى نوع المثل الاعلى الذى يدينون له بالولاء . ومن ثم فالانسـان هو الكائن الوحيد الذى يملك القـدرة على تغييـر واقعـه والقيـام بدور ايجـابى فعـال فى تحقيـق مصـيره .

٢ – القيمه الاخلاقيه : عمـل وفعـل :

القيمه الاخلاقيه على اختلاف صورها وأشكالها انما تتحقق بالعمل ومهما اختلفت المذاهب والنظريات الاخلاقية يجب ان نؤكد على حقيقة هامة وهى ان القيمة الاخلاقية ترتبط بالفعل الانسانى والمهمة الاولى للاخلاق انما هى دعوتنا الى العمل وبذل الجهد من اجل تغيير الواقـع وتحقيق ما لم يوجد بعد .

فالافعال الاخلاقيـــة والتجربة السلوكية هى التى تحـــدد معنى الاخلاق . واذا كانت النية مصدر أساس فى الحكم على العمل الاخلاقى الا انها وحدها لاتكفى ، بل لابد من الفعل الذى تتحقق به هذه النية . فالرجل الفاضل لايكتفى عادة بأن تكون لديه النيـة الطيبة بل يســعى دائما الى تقريب النيه أو وصلها بالعمل . وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقول ان الفضيلة ليست مجرد معرفة بها وقدرة نظرية على التمييز بين الخير والشر ، كما يزعم فلاسفة اليونان وخاصة سقراط وأفلاطون ، بل

هى سلوك اولا وقبل كل شىء . فليس يكفى فى الرجل الفاضل مثلا ان يعرف اضرار الكذب معرفة نظرية ، بل انه لن يكون فاضلا الا اذا التزم الصدق فى حياته الواقعية بالفعل .

مجمل القول أن القيمة الاخلاقيه هى قيمة فعل وعمل . انها قيمة فعل الخير . لكن ما معنى الخير ؟ هذا ما اختلف الباحثون منذ القدم حول تحديد معناه ، فمنهم من اراد أن يعتبر الخير سعادة ، والسعادة لذة (حسية أو عقلية) ، ومنهم من اراد اعتبار الخير فضيلة (شجاعة أو عدل أو حب أو قوة .. الخ) ومنهم من اعتبر الخير منفعة أو اثرة أو ايثار الى آخر هذه المعايير المختلفة التى تجتمع فى النهاية بوصفها أفعال انسانية قيمية توجد - فى المجال الاخلاقى - بين قطبى الخير والشـر .

والعمل الاخلاقى ليس عمل آلى أو غريزى وانما هو عمل اختيار وشعور واع وهذا الوعى هو ما يميز الفعل الانسانى عن أفعـال سـائر الموجودات الاخرى .

٣ - القيمه الخلقيه والحريـه :

العمل الاخلاقى بوصفه عمل اختيار وشـعور واع انما يختلف عن الجبرية ويأتلف مع الحرية . فالعمل لايكون فعلا اخلاقيا الا اذا واكبته حرية اختيار امر على آخر أو ترجيح قيمة على سواها .

واذا كان كثير من فلاسفة الفكر المعاصر قد فطنوا الى ضـرورة معاودة البحث فى الفضيلة او القيمة الخلقية فذلك لانهـم ادركوا ان القيمة الخلقية انمـا هى قيمة الحرية من حيث هى ارادة . فلا قيـام للاخلاق بدون الارادة التى تحاول دائما ان تحقق ما تريد .

واذا كان العلم هو عالم الضرورة والحتمية ، فان الاخلاق هى عالم الحرية والمسئولية . وفلسفة القيم تدعو الى حرية الانسان والى الحد الذى

يجعله خالقا للقيم . فالحرية هى التى تعطى للانسان قيمة وهى الأصل فى وجود القيم الاخلاقية وهى الدليل على قدرة الانسان ومكنته فى هذا الوجود .

يقول لوسين : ان الحرية ليست حالة ولكنها عملية تحرير للانسان وهى محاولة للتخلص من الماضى والانطلاق نحو المستقبل .

ويعتقد لافيل أن الحرية هى قوة تساعد الانسان على تحقيق الممكن وهى الطريق الموصل بين الواقع والقيمة .

فالحرية الانسانية والقيمة شىء واحد ، والانسان لايحقق القيم فى الوجود الا اذا تجاوز الحواجز والقيود والعقبات وبذلك تتحقق حريته .

والحرية التى نعنيها هنا هى الحرية المسئولة ، وهى القدرة على اكتشاف امكنياتنا وتحقيق ذواتنا . فالحرية هنا لها صلة وثيقة بالفعل الانسانى لأنه لارجاء للوجود الانسانى الا بالعمل وفيه ، بل ربما كان فى وسعنا ان نقول - على حد تعبير سارتر - ان الذى يسمح للمرء بأن يحيا انما هو الفعل الحر .

ولهذا فان الحرية تكشف لنا عن معنى القيم ومعنى الوجود بأسره ونحن لا نشعر بحريتنا حينما نتصرف كموجودات غير مسئولة بل نشعر بها حقا حينما نعرف مانريد ونعمل وفقا لمبادىء اخلاقيه يقرها العقل وتتقبلها الارادة . فالفعل الحر هو الصادر عن روية وتعقل وتدبر .

ان الحياة الانسانية الصحيحة - فيما يرى مين دى بيران - انما تبدأ حيث تنتهى الحياة الحيوانية اى حيث يبدأ الشعور بالذات التى تدرك نفسها على انها قوة فاعلة وارادة حرة .

ومن هنا فإن الانسان لايحيا حياة انسانية خالصة الا بقدر مايتحرر من الضرورة العمياء .

ومن هنا يمكن القول بان وجودنا الانسانى باسره لاينفصل عن فعل الحرية ٠

ان الحرية — بحسب تعبير لافيـل Lavelle هى المسار الكائن بين الواقع le réal والقيمه la valeur ٠ وهى القوة التى تخلق الكائنات ، وكل فعل من افعالنا انما يعبر الى حدا ما عن اعادة نظـر فى حياتنا باكملها ٠

واذا قلنا ان مهمة القيمة تنحصر فى اقامة ضرب من التوافق أو التطابق بين ما هو كائن بالفعل وما ينبغى أن يكون ، لزم علينا ان نقول ان الحرية هى التى تتكفل بتحقيق هذا التوافق ٠ وربما كان فى وسعنا ان تربط بين فكرة الحرية وفكـرة القيمة فتقول مع لافيل ان قيمة كل انسان تتوقف على درجة حريته ، وهـذه الحرية هى بحث عن القيم وسعى وراء الممكنات وجهد متواصل من أجل العمل على تحقيقها ٠

وكما ترتبط الحرية بالقيمة فهى أيضا مرتبطة بالخلق أو الابداع فالوجود الانسانى فى صميمه توتر مستمر بين الحتمية والحرية وسـعى دائب لخلق الحرية ، فهى فى النهاية القدرة على الخلق خلق الجـدة والعمل على تحقيقها ٠

واذا كان الاغتراب عن الواقع وعدم السيطرة عليه احدى ازمـات العقل فى عصرنا الحالى ، فاننا نستطيع أن نتغلب عليهـا عن طريق الابداع ، وهذا لن يتحقق الا حينمـا يتحقق للانسان حريته التى هى القدرة على الخلق والخبرة والعمل ٠

وجوهر القيمة اذن سيمكن فى التوافق بين واقع الانسان وما ينبغى ان يكون عليه هذا الواقع ٠

القيمه الخلقية تجمع بين الموضوعيه والذاتيه :

الأصل فى البحث فى القيمة الخلقية يرجع الى البحث عن مصـدر يوفق بين الموضوعية والذاتية ٠ الموضوعية هى عبارة عن مجموعـة القواعد الاخلاقيه التى تحدد أمام الفرد المثل العليا التى تلزمه باتباعها

إما الذاتيه فهى عبارة عن شعور الفرد بانه هو نفسه مصدر كل اخلاق ، وبان الاخلاق تنبع من ذاته هو ، والقيمه الخلقية هى التى تجمع بين تلك الموضوعية وهذه الذاتيه .

ولكن ماهى هذه القيمه الاخلاقية التى تفرض سلطانها على العقل والحياة معا ، وتوفق بين جمود القواعد الاخلاقيه وانطلاق الحياة ، وتمزج بين موضوعية القواعد الصارمة ، وذاتيه الحياة الفردية ، هذا ما اختلف فلاسفة الاخلاق فى تفسيره : فمنهم من ذهب الى ان هذه القيمة هى القيمة المطلقة — أو الله . فاتحاد القيم انما يرجع الى ان لها مصدرا واحدا هو القيمة المطلقة Absolute Value التى تفيض وتشع بكل القيم الاخرى (*) .

(*) أن القيم الميتافيزيقية هى دائما ابدا قيم مطلقة فيجب ان يكون تقديرنا للخير بوصفه خيرا مطلقا ، وللجمال بوصفه جمالا مطلقا وللحق بوصفه حقا مطلقا .

والقيمة الميتافيزيقية العليا هى « الله » بوصفه هو الحق المطلق ، واللا نهائى والروح والموجود الاول . مثل هذه القيمة التى يفوق علوه جميع القيم الانسانية الاخرى ، تكون مستقله استقلالا جذريا وتاما عن نسبية القيم الانسانية الاخرى .

ان الانسان الذى يفعل الخير ويحب الجمال ويقدس الحق ، فانه يتمنى تحقيقها فى كل [illegible] وكل قول وكل نبضة قلب .

يقول « لوسين » اننا لانستطيع أن ننكر هذه القيمة المطلقة انها عزاء الانسانيه التى تشق طريق القيم بالآلام .

ومن البديهى أن الانسان حين يرغب فى تحقيق القيم المطلقة انما يكون ذلك على نحو مجرد تماما من كل الاعتبارات الشخصية اننا نبحث عن الحقيقة من أجل ذاتها ، وليس بمقدور احد ان يغير من وجهها . وكما يقول لوسين فى كتاب « الحجز والقيمة » : اننا نتقبل الحقيقة كما هى غير مزيفة وبلاقناع يخفى عنا وجهها . القيمه المطلقة هى معيار ذاتها وكل هذا يؤكد لنا ان القيم يجب ان تكون مثلا عليا يجب ان تتحقق فى الواقع الفعلى ، وكل فعل يبغى تحقيق القيم انما يحقق فى الوقت ذاته بناء الانسان وبناء العالم الذى نعيش فيه .

فالقيمة المطلقة اذن هى النبع الخالص والمصدر اللانهائى لجميع القيم ، ولا معنى للخير والحق والجمال ان لم تكن هذه القيم من الله ذاته ، ولذلك كانت هذه القيم هى ملهمة الانسانية كلها .

وذهب فلاسفة آخرون الى ان القيمة المطلقة هى المجتمع باعتباره المصدر الأول لجميع القيم ، وذهب آخـــرون الى أن العقـل الانسانى باعتباره تلك الملكة المشـتركة بين النـاس جميعا ، وهـــو الآمر المطلق والمصدر السامى الذى يشرع لكل إخلاق . (الى مثل هذا الرأى ذهـب المعتزلة فى الفكر الاسلامى وكانط فى الفلسفة الحديثة) .

الصلة بين الأخلاق والقيم الأخرى :

أيا ما كان التمييز بين القيم المختلفة ، وأيا كانت الحدود التى تفصل بينها ، فاننا يجب أن نسعى الى التوفيق والتقريب بينها والأخلاق يجب أن تكون همزة الوصل بين النشاط العقلى أو المعرفى أو العملى ، وبين كل نشاط يصدر عن الارادة مثل الفن ، والايمان . والضـــمير الانسانى يجب أن يسترشد بالأخلاق والفضيلة وأن تكون هى السـياج الذى يحميه من كل انحراف .

ويأتى تساؤل : **هل القيمة الخلقية مصدرها العلم أم الدين ؟**

للاجابه على هذا لابد لنا أن نتساءل عن طبيعة الأخلاق ، وطبيعة الدين ، وهل تعاليم الدين تساير طبيعة الحياة ، فاذا كان هناك توافق بينهما فلا يوجد اعتراض على الأخلاق التى يفرضها هذا الدين .

ولاشك أن الديانات المنزلة تؤكد أن الله سبحانه وتعالى بيده الثواب والعقاب ، والأوامر الدينية هى فى نفس الوقت أوامر أخلاقيه وليس ثم اختلاف بينهما .

وقد استمر الصراع بين انصار العلمانية الذين يرفضون ربط الأخلاق بالدين ، وانصار التربية الدينية التى تربط بين القيم الأخلاقيه والقـيم الدينية ، ولعل ابرز مظاهر هـــذا الصراع ما واجهه العالم الغربى بين الدين ومتطلبات الحياة الحديثة مما أدى الى أزمـة الحضارة الأوربية نتيجه تخليها عن الدين والقيم الروحية النبيلة كما سبق أن رأينـــا .

فالبلاد الأوربية التى تخلت عن القيم الدينية وادخلت العلمانية فى كل تعاليمها وحياتها قد عاشت تجربة الصراع بين القيم الأخلاقية والقيم الدينيـــة ٠

ونستطيع أن نقول أن القيم الأخلاقيه لابد وأن تكون لها صـــلة وثيقة بالقيم الدينية لأنه لاتعارض بين تعاليم الأخلاق وتعاليم الدين ، والفصل بين الدين والأخلاق قـــد يؤدى الى زيادة الجرائم وانحـــلال المجتمع ٠

والأخلاقيه فى جوهرها مجاهـــدة للنفس تهـــدف الى اعلاء القيم الروحية العليا على القيم الحسية ، وهذا - عينه - هو مايدعونا اليــــه الدين ٠

واذا كانت القيمة الأخلاقية متصلة بالدين ، فليس معنى ذلك انها تعارض العلم بل ايضا على صلة وثيقة بـــــه لأنه لاتعـــارض بين الدين والعلم ، ففى القرآن الكريـــم والسنه النبوية الشريفة دعوة صريحة الى العلم والتامل والتدبر والتفكير - كمـــا سبق أن اوضحنا فى فصـــول هـــذا الكتـــاب ٠

مجمل القول أن القيمه الخلقية ليس مصدرها العلم وحده أو الدين وحده بل تجمع بين العلم والدين معاً لأنه لاتعارض بينهما ٠

اهـــم المراجـــع

اولا : المراجـــع العربية :

— **القرآن الكريـم** .

— **د . ابراهيم مدكور : فى الفكر الاسلامى . ط ١ سميركو للطباعة والنشــر . ١٩٨٤** .

— **ابو النصر مبشر الطوس الحسينى : الاخـــلاق فى الاسلام** الهيئة المصريه العامة للكتاب : ١٩٨٧ .

— **ابن مسكويه : تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق . القاهرة ١٩٠٨** .

— **د . احمد فؤاد الاهوانى : جون ديوى . دار المعارف (بـــدون تاريـــخ** .

— **د . احمد عبد الرحمن ابراهيم : الفضائل الخلقية فى الاســلام .** ط ١ ١٩٨٩ (دار الوفاء للطباعة والنشر (المنصورة) .

— **الغـــزالى :** المنقذ من الضـــلال : تحقيق د . عبد الحليم محمود ١٩٥٥ .

— ـــــــــــ : معارج القدس فى معرفه مدارج النفس تحقيق لجنه احياء التراث العربي . بيروت ١٠٦٦ م ، ٩٢٣ هـ .

— ـــــــــــ : احياء علوم الدين ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ دار القـلم . بيروت . (بدون تاريخ) .

— **امين مرسى قنديل :** د . زكى نجيب محمود : تجديد فى الفلســفة مكتبة الانجلو . (بدون تاريخ) .

— د . **توفيق الطـويل :** مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الاخـــلاق ط ١ مكتبه النهضة العربية ١٩٥٣ .

— ـــــــــــ : أسس الفلسفة : ط ٧ (النهضة العربية ١٩٧٩ .

- توفيق الطويل : فلسفة الأخلاق : ط ٤ . دار النهضة العربية ١٩٧٩ .

- توفيق الطويل : الحضارة الاسلامية والحضارة الأوربية دراسة مقارنه .

- د . زكريا ابراهيم : المشكلة الخلقية . مكتبه مصر . ط ٣ ١٩٨٠ .

- ______ : مشكلة الحريه : مكتبه مصر ١٩٧٢ .

- د . زكى نجيب محمود : حياة الفكر فى العالم الجديد . مكتبه الانجلو المصرية ١٩٥٨ .

- د . سهير فضل الله أبو وافيه : الفلسفة الإنسانية فى الاسلام القاهرة ١٩٩٠ .

- د . صلاح قنصوه : نظرية القيمة فى الفكر المعاصر . دار الثقافة للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٨١ .

- د . عادل العوا : العمدة فى فلسفة القيم . دمشق ١٩٨٦ .

- د . عزمي اسلام : محاضرات فى الميتافيزيقيا ١٩٧٦ .

- د . عبد الفتاح أحمد : مفهوم الأخلاقية : دراسة فلسفية دينية ط ١٩٩٠ .

- د . عبد الرحمن بدوى : شوبنهور : ط ٢ مكتبه النهضه المصريه ١٩٤٥ .

- فؤاد زكريا : عصر الايدلوجية : تاليف هنرى . د . ايكن مراجعة د . عبد الرحمن . مكتبه الانجلو المصرية ١٩٦٢ .

- ______ : نيتشة : دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

— ________ : حكمة الغرب حـ ٢ : الفلسفة الحديثة والمعاصرة ٠
تاليف : برتراندرسل ٠ (المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب
بالكويت ٠ ١٨٩٣) ٠

— د ٠ فوقيه حسين محمود : فلسفة القيم : القاهرة ١٩٨٤ ٠

— ________ : مدخل الى الفكر الاسلامى : القاهرة ١٩٨٣ ٠

— د ٠ فهمى محمد علوان : القيم الضـــرورية ومقاصد التشريـــع
الاسلامى الهيئة العامة للكتاب ٠ ١٩٨٩ ٠

— د ٠ مـراد وهبـة : يوسف كـرم : المعجم الفلسفى ٠
القاهرة ١٩٦٦ ٠

— د ٠ محمد يوسف موسى : الاسلام وحاجة الانسانيه اليه ١٩٦١ ٠

— د ٠ ________ : فلسفة الأخلاق فى الاسلام : مطبعة الرسالة ١٩٤٥

— د ٠ محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى الاسلام ٠ ترجمة وتحقيق
عبد الصبرر شاهين ٠ دار البحوث العلمية ٠ ط ٦ ١٩٨٥ ٠

— محمد عبد القادر حاتم : الأخلاق فى الاسلام : الهيئة المصرية العامة
للكتاب (بدون تاريخ) ٠

— د ٠ مصطفي غالب : نييتشـــة : دار الهلال ١٩٨٣ ٠

— د ٠ نازلى اسماعيل حسين : فلسفة القيم ٠
مكتبة سعيد رأفت بالزيتون ٠ (بدون تاريخ) ٠

ثانيا : المراجع الاجنبية :

1 — **Becker, H, :** Through Values to Social interpretation, Durhom, Duke. University Press. 1950.

2 — **Catton, W. :** A Theory of Value " in American Sociolgical Review 1959.

3 — **Dewey John :** Reconstruction in Philosophy. London 1948.

4 — .... : How we Think. London. D. C. Health and Company, 1933.

5 — .... Moral Principles in Education N. 4. Houghton Mifflin Co. 1909.

6 — .... The Meaning of Value (in Philosophical Revew.) 1939.

7 — **F. Nietzsche :** Beyond Good and Evil (Reprinted from the Complete work of Nietzsche. ed. Oscar. Levy. Vol. 10,11. J. N. Foulies. 1910).

8 — **I. Kant :** The Foundation of the metaphysic of moral by : J. K. A Bbott. 1873.

9 — **I. Bentham :** An introduction to the Principles of Morals and Legislatoin. N. 4. 1961.

10 — **I. S. Mill :** Utilitarianism. London 1863.

11 — **I. N. Findlay :** Values and intentions. London. 1967.

12 — **Louis. P. Pojman :** Ethical Theory Classical and contemprary Reading university of Missisipi. Library of Congress. 1988.

13 — Nietzsche : The Joyful Wisdom (From Ethical Theory).

14 — Nicolay, Hartman : Ethics Vol. 1 : Moral Phenomena.
Vol. 2 : Moral Values.
London. 1963.

15 — Pierce, Charles. Sanders : Collected paper. 6 Vol.

16 — Perry, R. : General Theory of Value. Harvard University, Press.. 1950.

17 — Ward : Value and reality. London 1935.

أودع هذا المصنف بدار الكتب المصرية
تحت رقم ٧٩٢١ / ٩٢
I . S . B . N
977 — 200 — 040 — 7